

قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

السؤال الحائر

دكتور مصطفى محمود

دار
أخبار اليوم
قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

وسألت نفسى

سألت نفسى عن أسعد لحظة عشتها .. ؟؟

ومـر بخـاطرى شـريط طويل من المشـاهد .. لحظة رأيت أول قصة تنشر لى ، ولحظة تخـرجت فى كلية الطب ، ولحظة حصلت على جـائزة الدولة فى الأدب .. ونشـوة الحب الأول والسـفـر الأول.. والخـروج إلى العالـم الكبيـر مـتجـولا بين ربوع غـابات أفريقـيا العذراء ،وطـائراً إلى المانيا وإيطاليا والـنمسا وسـويسرا وإنجلتـرا وفرنسـا وأمـريكا .. ولحظة قـبضت أول ألف جنيـه .. ولحظة وضـعت أول لبـنة فى المركـز الإسـلامى بـالدقى .. استعرضت كل هذه المشاهد وقلت فى سرى .. لا .. ليست هذه ..

بل هى لحظة أخرى ذات مـساء من عشرين عـاما اختلط فيـها الفرح بالدمع بالشكر بالبهجة بالحبور حـينما سجدت لله فشعرت أن كل شىء فى بدنى يسـجد .. قلبى يسـجد .. عظامى تسـجد .. أحـشائى تسـجد .. عـقلى يسـجد .. ضـميـرى يسجـد .. روحى

تسجد.. حينما سكت داخلى القلق وكَفَّ الاحتجاج ورأيت الحكمة فى العذاب فارتضيته ، ورأيت كل فعل الله خير ، وكل تصريفه عدل ، وكل قضائه رحمة ، وكل بلائه حب .. لحظتها أحسست وأنا أسجد أنى أعود إلى وطنى الحقيقى الذى جئت منه وأدركت هويتى وانتسابى وعرفت من أنا .. وأنه لا أنا .. بل هو .. لا غيره..

انتهى الكبر وتبخر العناد وسكن التمرد وانجابت غشاوات الظلمة وكأنما كنت أختنق تحت الماء ثم أخرجت رأسى فجأة من اللجة لأرى النور وأشاهد الدنيا وآخذ شهيقا وأتنفس بحرية وانطلاق .. وأى حرية .. وأى انطلاق .. يا إلهى .. لكأنما كنت مُبعداً منفيا مطروداً أو سجينا مكبلا معتقلا فى الأصفاد ثم فك سجنى .. وكأنما كنت أدور كالدابة على عينيها حجاب ثم رفع الحجاب .

نعم .. لحظتها فقط تحررت .

نعم .. تلك كانت الحرية الحقة .. حينما بلغت غاية العبودية لله وفككت عن يدى القيود التى تقيدنى بالدنيا وآلهتها المزيفة .. المال والمجد والشهرة والجاه والسلطة واللذة والغلبة والقوة ..

وشعرت أنى لم أعد محتاجا لأحد ولا لشىء لأنى أصبحت فى كنف ملك الملوك الذى يملك كل شىء .

كنت كفرخ الطير الذى عاد إلى حضن أمه ..

كانت لحظة ولكن بطول الأبد .. نعم تأبدت فى الشعور وفى الوجدان وألقت بظلها على ما بقى من عمر ولكنها لم تتكرر .. فما أكثر ما سجدت بعد ذلك دون أن أبلغ هذا التجرد والخلوص وما أكثر ما حاولت دون جدوى .. فما تأتى تلك اللحظات بجهد العبد بل بفضل الرب .. وإنما هو الذى يتقرب إلينا وهو الذى يتحبب إلينا .. وما نتعرف عليه إلا به .. وما نعبده لحظة تمام العبادة إلا بمعونته .. وما ندخل عليه إلا بإذنه .. فهو العزيز المنيع الجناب الذى لا يدخل إليه بالدعاوى والأقاويل .

ولقد عرفت آنذاك أن تلك هى السعادة الحقة وتلك هى جنة الأرض التى لا يساويها أى كسْب مادى أو معنوى .

يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩) ﴾ [العلق]

صدق الله العظيم .. وما كل ساجد بمقترب إلا إذا خلع النعلين فألقى بالدنيا وراءه ثم ألقى بنفسه خلفها ودخل مسلم القلب عريان المشاعر خاشع الفؤاد ساجد الأعضاء .. حينئذ يكون القرب.. وتكون السجدة .

ولكم أتمنى أن أعاود تلك السجدة .

أو تعاودنى تلك السجدة .. ويتفضل علىّ الله بالقرب ويأذن لى بالعبادة حق العبادة .. وأقول فى نفسى أحيانا .. لعلى لم أعد

أخلع النعلين كما يجب وكما يليق بجلال المقام الأسمى .. ولعل الدنيا عادت فأخذتني في دوّاماتها وعاد الحجاب فانسدل على العينين وعادت البشرية فناءت بثقلها وكثافتها على النفس الكليلة ولكني لا أكف عن الأمل وأسأل الله أن يشفع الأمل بالعمل سبحانه وسعت رحمته كل شيء .

الحب في الكعبة

وسألت نفسي وأنا أطوف بالكعبة

ما بال المسلمين يطوفون الآن في خشوع وتبتل فإذا خرجوا تفرقوا وانقسموا وأصبح كل منهم يطوف حول نفسه أو حول اسمه أو حول شيطانه .

أهي أدوار يمثلونها لبضع دقائق ثم يذهب كل منهم بعد ذلك إلى حال سبيله .

أيكون طوافهم طوافا ونسكا دينيا حقا أم تمثيلا .

هل أراد الله بالطواف أن يكون مجرد حركة معزولة عن السلوك والحياة أم أراد به أن يكون شعيرة دينية .. هي تكثيف وتلخيص للحياة كلها .

بل أراد الله أن تكون حياتنا كلها طوافا حول مشيئته في كل صغيرة وكبيرة .

ولو أن العرب طافوا في سياستهم حول نقطة واحدة كما

يطوفون الآن ، ولو أنهم اجتمعوا أبيضهم وأحمرهم وأسودهم فى رحاب رأى واحد كما يجتمعون فى الكعبة لما ذلوا ولما هانوا ولما أصبحوا عالما ثالثا أو عالما رابعا كما نراهم الآن .

وسألت نفسى فى دهشة .

وكيف بالطوافين حول الكعبة يحارب بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا .. وعلى أى معنى إذا كانوا يطوفون .. وعلى أى شىء كانوا يجتمعون .

هل صدقوا حينما طافوا .

وهل صدقوا حينما اجتمعوا .

وهل صدقوا حينما قالوا .. الله أكبر .

بل كانت الدنيا عند كل منهم أكبر .

وكان كل منهم طوافا حول نفسه مسبحا برأيه مهللاً لأفكاره صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما رد على الأعرابى الذى قال له أصلى الفروض الخمسة ولا أزيد .. فقال .. أفلح إن صدق .

فالقول مازال ساريا على العرب جميعا إلى اليوم .

أفلحوا إن صدقوا .

ويبدو أنهم إلى الآن .. ما صدقوا .

الحب فى السينما

أما الحب فى السينما .. فيبدو أنه أصبح الآن بضاعة مغفلين .

ما من قصة حب فى السينما إلا ونرى فيها طرفا يستغفل الآخر أو نرى كلا منهما يستغفل نفسه ويغلف رغباته بالأشعار والكلام الحلو ويغمض عينيه على الكلام العسل سعيا وراء ليلة لذيذة .. والمخرج والمنتج يستغفلان الكل .. وكله مكسب .. ولا شيء حقيقى .. مثل إعلانات التليفزيون تحاول دائما أن تغويك وتستغفلك لتشترى أشياء لست فى حاجة إليها ولتجرى وراء بضاعة عندك ما هو أحسن منها فى بيتك .

والديكور والألوان والأزياء والموسيقى مؤثرات مثل الأفيون يحاول المخرج أن يحرك بها شهيتك ويخدر حواسك ويغسل مخك لترى ما يريد هو أن تراه ولتحب ما يريد هو أن تحبه .

والممثلون يختالون على الشاشة ويقولون كلاما مصنوعا ويتخذون أوضاعا مفتعلة والبطلة تكاد تقع على الأرض من فرط الرقة .

لا ترى أحد يتكلم على طبيعته أو يمشى على طبيعته .

وكل قصص الحب تباديل وتوافيق قصة واحدة مملة مكررة.. أحبها وتزوجت رجلا آخر أو تزوجها وأحبت رجلا آخر .. ابنه ليس ابنه .. خيانة زوجية غيرة .. وجريمة قتل أو ضياع فى البارات بين الخمر والراقصات ومحاولة نسيان .. ودائما

محاولات النسيان لا تكون إلا فى البارات وبين أحضان الراقصات.. ولا يفوت المنتج أن يمتعنا بتابلوه راقص فى الكباريه.. ثم أغنية عاطفية فى القناطر .. ثم يفاجئنا بلطجى الكباريه عشيق الراقصة.. وماتش ضرب .. وحادث سيارة ويفقد البطل الذاكرة إلى آخر الموال .. وفى موسم المخدرات لا مانع من فيلم مخدرات .

صناعة استغفال وفن استغفال .

فن زخارف .. زخارف أقوال وزخارف أفعال .. ونقوش لكن على الماء ثم لا يبقى شىء .

أما الحب الحقيقى فشىء آخر تماما لا نجده فى أى فيلم .

الحب الحقيقى هو المودة والرحمة ، وهو عطاء الفطرة الذى لا تكلف فيه ولا صنعه ولا احتراف ، وهو صفة النفوس الخيرة وخلة الأبرار الأخيار من الرجال والنساء ، وهو شىء آخر غير الذى يعرض علينا فى الأفلام ، وهو لا يوجد إلا فى البيوت الطيبة التى ليس لها صوت ولا تسمع لها سيرة ولا تحكى عنها قصص ولا أخبار .

لا شىء مما نرى فى السينما يمكن أن يبنى بيوتا أو يصنع نفوسا سوية وإنما أغلبها يهدم ويضيع ويقدم نماذج مريضة يظنها الأولاد قدوة فنراهم فى البيوت يقلدون النجوم والنجمات ويتهتكون فى المشية ويغنجون فى النطق ويظنون أنهم أصبحوا عباقرة .

ولا أجد سـببـا واحداً مـعقـولا لإعادة أمـثال هذه الأفـلام فى التليفزيون إلا أن تكون خطة إعلامية مقصودة لتغييب الوعى .

ومن حق المواطن أن يرى فى التليـفزيون ما يفيـده وأن تجنبه أجهزة الرقابة ما يضره وما يضيعه .

وإذا كان إهمال التليفزيون لهـذه الأفلام سوف يؤدى بالسينما إلى الإفلاس فلتفلس .. فلا غـرابة أبدا فى إفلاس صناعة رديئة .. ولا ضرر فى ذلك بل فائدة .

ولا أعفى الأفلام الأجنبية الشرقى منها والغربى من هذا النقد ، وربما كـانت أخطر لأنهـا أشطر فى الحرفـة وأمـهر فى الصنعـة وأفحش فى المضـمون .. والقليل منها هو الذى يمكن أن يسـتثنى مثل الأفلام التاريخية والتسجيلية والعلمية فمعظمها جيد ومفيد .

ولاأدرى لماذا لا تقـتحم السيـنما العـربية هذه الميـادين .. وقد فعلت ذلك فيما مضى وقدمت الناصر صلاح الدين وفجر الإسلام والرسـالة .

وهكذا كانوا يفعلون فى الماضى قبل أن يدخل تجار وكالة البلح ميـدان الإنتاج السينمائى وقـبل أن يصبح شعـار الفيلم الناجح .. هو الضرب للركب والضحك بالهبل .. واللى ما يشترى يتفرج ..

اسأل نفسك مرتين قبل أن تشترى تذكرة سينما

وتأكد أنك لن تشتريها أبدا .

على من يرفعون عصا الشريعة ؟

الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء ، ولكنها نزلت إلى كل مسلم ليطبقها فى نفسه أولا وفى سلوكه وفى بيته وفى جيرانه وفى عشيرته كل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيته التى عليه أن يطبق فيها أمر الله أولا قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره..

والآيات التى جاءت فى القرآن الكريم فى سورة المائدة :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) ﴾ [المائدة]

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) ﴾ [المائدة]

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) ﴾ [المائدة]

– هذه الآيات نزلت لكل مسلم وإلى كل راع فى رعيته ، وهى ليست مسئولية ينفرد بها الحاكم ولا أمانة اختص بها مجلس الوزراء .

بل إن القرآن الكريم جاء صريحا بأن الله لن يغير ما بالناس

حتى يبدأوا هم بتغيير ما فى نفوسهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]

فإقامة شرع الله فى دولة النفس هى البداية وهى الشرط الأول الذى بدونه لا تغيير ولا تبديل .

والله يخاطب عيسى فى حديث قدسى قائلا :

« يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح منى »

فالشريعة لم تنزل لنسير بها فى مظاهرة هاتفة إلى سراى عابدين دون أن يفكر هذا الذى يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات وهو غالبا مخدوع أو عميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرته وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن .. هذا الذى يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر فى أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير .. ولن يحقق نفعا .. وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة ، ودون همة خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة فى نفسه فلن يصل إلى شىء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهرى ووضع لمزيد من الملصقات مثلما فعل النميرى فى السودان فقطع يد سارق الجنيهات العشر وأعفى سارق المليون .

والخومينى يقول إنه يطبق الشريعة فى إيران والقذافى يقول

إنه يطبق الشريعة فى ليبيا وضـياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة فى باكستان فأى تطبيق من هذه التطبيقات يريده المتظاهرون .

وفى السعـودية تقـام الحدود بالفـعل فـتـقطع يد اللصـوص ويرجم الزناة ومع ذلك فـقد طلع المـهدي وعـصابتـه على الكعبـة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة .

إنها إذن ليست حكاية الشريعة .

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفـسهم حكاما .. إنها شهوة حكم ومطلب سلطة .. وما اللافـتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعـمية .. والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التـى خططت لتعيـد فتنة الخوارج فـأرادت أن تخرج علينا رافـعـة المصاحف على أسـنة الرماح هاتفـة على الحـاكم أن يطبق حكم الله ..

وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد ردا نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبى طالب .. إنها قولة حق أريد بها باطل ..

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم :

واليوم نرى الزمن قـد استدار دورتـه ونرى الإسلام يدفع به إلى فـتنة أكـبـر وأشـمل فنرى المسلم يقـتل المسـلم فى كل مكان وحـملة لواءلا إله إلا الله يذبح بعضـهم بعـضا فى لبنان والعـراق وإيران وسوريا وليبيـا وكل بلد عربى . وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضا تحت راية الشريعة وباسمها .

وقديما لـم يقطع عمر بن الخطاب يدا فى مجـاعة .. و لم يقطع النبى ﷺ يدا فى حرب ..

ونحن اليوم فى حرب أو نكاد .. وفى فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب .. وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برىء .

وقد أوصـانا الرسول عليـه الصلاة والسـلام أن ندرأ الحدود بالشبهات .. وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذى يموج بالفتن كقطع الليل المظلم ..

تمهلوا ياقـوم ولا تـعـجلوا فـتـدفع بكم العـجلـة إلى الظلم .. فالشريعـة ليست قضية انفعـال ولا مسألة هوى .. بل هى مطلب حقيقى وعـزيز ويجب أن تصدق فيه النيات ، ويبدأ فـيه الطالبون بأنفسهم وتتجاوب فيه القـاعدة مع القمة ويأتى فيه الإصلاح على مكث وعلى تـروٍّ وعلى تدرج ، فنحن فى الظـرف الذى يسـمـيـه الفـقهـاء .. شيـوع البلوى .. تماما كـما كـان انتشـار الخمـر فى الجاهـلية بلوى شـائعة .. ولذلك نزلت آيات تحـريمهـا على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمـها أكثر من اثنتى عشرة سنة .. وكـان هذا درسـا من الله يعلمـنا فـيـه مـرونة التـشـريع الإلهى ومناسبته لكل الظروف .

ثم هناك ولا شك قضايا فـقهية وقانونية فى حـاجة إلى إعادة تقنين وإعـادة نظر مثل قضـايا الرشوة والاخـتلاس والعـمولات والسرقـة من مال عـام .. ومثل تلك السـرقات لا يدخلهـا المشرع

الإسلامى تحت بند قطع اليد .. لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يجيز قطع اليد فى سرقته .. وبذلك نراه يقطع اليد فى عشرة جنيهات ويعفى مختلس المليون الذى سرقها من قطاع عام.. وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات اليوم هى سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها .. وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة .

إن الدراسة مطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته.

●●●

ثم إن الشريعة ليست مجرد حدود .. فالعدل شريعة والرحمة شريعة والعلم شريعة والعمل شريعة والله أمر بالعلم والعمل فى أكثر من ألف موضع وأمر بقطع يد السارق فى موضع واحد وأول الأوامر مطلقا كان ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق]

وبرغم هذا الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذى له أولوية مطلقة فى الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل نفكر فى المظاهرات والهتافات والمسيرات لنطبق الشريعة .. ولكن ما هى الشريعة .. إنها هذا كله .. إنها العلم والعمل والعدل والرحمة ومكارم الأخلاق .. وهى ليست مجرد حدود .. وما الحدود إلا سياج الأمن والحماية الذى تضربه الشريعة حول خيمة المسلمين..

ولكن الشريعة ككل أكبر من موضـوع الحدود فهى قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النماء والتطور للمجتمع الإسلامى .

وما أقـول هذا الكلام إلاحـبا فى الشـريعة وتمسكا بهـا خوفـا عليها من سوء النيات وسوء التفـسير وسوء الفهم وسوء التطبيق وحرصا عليها من متاجرة المتجرين المتآمرين .

●●●

والإسـلام الحق لا مـدخل فـيـه للإكـراه والعـنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب الـيمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول .

ولا يصح فى الإسلام إلا الصحيح .

ولا يخلص إلا ما كان خالصا لوجهه تعالى .

فتمـهلوا يا قوم .. ولا تسارعوا باتهام بعـضكم بعضا .. فكلنا يسير على الشـوك وكلنا يمشى على الألغام .. وكلنا مسـتدرجون من حـيث لا ندرى بمكر الماكرين من الداخل وتآمـر المتآمـرين من الخارج .. ولا يسلم موطىء قدم من حفـرة ولا تسلم عتبة من فخ منصـوب .. والأعـداء حولنـا كبـارهم وصـغـارهم لا يريدون لنا سلاما وهم يـخططون لخرابنا .. ويا حبذا لو جـاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال .

فلنتمهل .. ولنفكر مرتين .

وليرفع كل منـا عصا الشـريعة على نفسـه أولا وليطبقـها فى

سلوكه وفى بيته وليغير من نفسه .

فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا .

فذلك وعد الله .. ولن يخلف الله وعده .

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه فى هدوء بين رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد متنورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شيء .

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم (٥٥) ﴾ [الزمر]

الله يوصينا بهذا مع أن كل ما أنزله إلينا حسن .

والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر .. فالله أمرنا بالعدل ولكنه أمرنا أيضا بالرحمة فوق العدل .. ومن يأخذ بالرحمة يأخذ بالأحسن .

ألم يقل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للمسلمين .

« تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى منها فقد وجب » .

أى حاولوا تصفية الخلافات التى تقتضى الحدود فيما بينكم فيعفو الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغونى فإن ما بلغنى منها فقد وجب تنفيذه .. يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثارا للعفو والتراحم بين المتخاصمين .

وهذا هو الإسلام .. دين السماحة والتراحم والمحبة والمغفرة .. الدين الحنيف الذى لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل فرص الإصلاح الديني الذى جاء رحمة للعالمين .

فلنحاول أن نكون مسلمين حقا .. رحماء حقا .. إنسانيين حقا.. فتلك هى بطاقات المؤمن الربانى الوارث الذى يسير على القدم المحمدية .

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف الطائرات وتلغيم السيارات فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل الأغراض والأهواء والمهيجين والمجرمين والمتاجرين بالعقول .. ولسنا منهم .. بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا بابا إلي نجاة بل سوف يفتحون لنا جهنم على مصاريعها .

من هو الأصولى ..؟

كلمة نسمعها كثيراً هذه الأيام هى الأصوليون .. وطائفة الأصوليين هم الملتزمون بحرفية النصوص السائرون على قدم النبي عليه الصلاة والسلام حذر النعل بالنعل لا يزيدون على ما يقوله حرفا ولا ينقصون حرفا يقلدونه فى كل فعل .. يحاكونه فى ملبسه وفى مأكله وفى سيره وركوبه وفى صحوه ونومه وفى حياته وسعيه لا يجددون فى شىء حتى ما يقتضى التجديد ويرفضون التطوير والتحديث ويحاربون المفاهيم العصرية بكل أشكالها ومذهبهم أنه إذا تغير القالب تغير معه القلب وأن الإسلام شكل ومضمون ولا يصح أن يتطور شكلا حتى إذا كان هذا التطور الشكلى فى خدمة المضمون ومثلهم الأعلى هو الجمود على القديم وهم يرون أنهم المسلمون بحق وأن سواهم ناقص فى إسلامه وهم أبدا فى حرب مع أى جديد وحجتهم أمام كل مشكلة هى ..

أهذا الجديد فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

أهذا الجديد قال به رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

فإن لم يكن فعله ولا قال به رفضوه ولو كان حسنا وحاربوه ولو كان أكثر تناسبا مع العصر ونبذوه ولو حبذه العقل .

وهم أهل تشدد على أنفسهم وعلى غيرهم ..

ولنا مع هؤلاء المسلمين الأفاضل وقفة هادئة .. فالإسلام نفسه ليس دين جمود بل دين حركة وليس دين شكل بل دين فعل .

يقول الله عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون]

فهم بحسب الشكل يثيرون إعجابك ولكن لا تحكم بالشكل بل استمع إليهم يتكلمون : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون]

يقول الله : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون]

وفى الحديث .. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم وإلى قلوبكم .. ثم إن فهم القرآن لا يصح أن يقف عند الحروف ولا ظاهر الكلمات .

يقول الله فى سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

ولم يقل مفسر واحد أن التأهب للأعداء يجب أن يتوقف عند رباط الخيل وأننا يجب أن نلزم النص والحرف .. ولم يقل واحد

بأن هذا حدود المفهوم القرآنى .

وقد اختلف العصر وتحول سلاح الفرسان إلى سلاح مدرعات ثم استجدت الصواريخ ثم أشعة الليزر .. ثم الرؤوس النووية ولا نهاية للتطور .. فكيف بالمسلم يقف عند الحرف ولا يتجاوز ظاهر الكلمات ويتصور أنها أصولية فى الفهم أن يحارب عدوه على فرس .

وقد ركب النبى عليه الصلاة والسلام البغلة .. فلماذا لا يلزم الأصوليون ركوب البغال فى أسفارهم .. ؟ ولماذا نرى شيوخهم يركبون المرسيدس ويطيرون فى الكونكورد ونرى شبابهم يحملون مدافع الكلاشنكوف (صناعة روسية) ؟

فلماذا تناقضوا مع أنفسهم ومع الأصولية التى يدعون إليها فى هذا ؟ ولماذا لم يتمنطقوا بالسيوف ويحملون كنانة السهام ؟

ولماذا لا يقضون الحاجة فى الخلاء بدلا من المرحاض كما كان يفعل المسلمون الأوائل ؟

لماذا أخذوا عن النبى اللحية والسواك وقصروا الجلباب ورفضوا الباقى ؟

إذا كان العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة اقتضت ذلك فلماذا ينكرون علينا ما أباحوا لأنفسهم ..

وهل نقول نحن أنصار التحديث والتطور أكثر من هذا .. إن العصر والمصلحة واللياقة والمناسبة وما يستحسنه العقل هو روح

الإسـلام ومـضـمونه وأن الـشكل يجب أن يتطور مـتناسـبـا مع مقتضيات العصر وأن هذا من كمال الإسلام وليس من نقصه .

ولماذا يقفـون عند الشورى ويحاربون الديمقـراطية .. ؟ مع أنه لا قيـام للشورى فى حـياتنا العـصرية الجـديدة بدون معـارضة وأحزاب وحرية صحافة .. فـهذه الأجهزة هى الشكل الجديد الذى يمكّن للشورى ويجعل لها أثرا وفعالية .. ولماذا يرفضون الاجتهاد مع أن الاجتهاد هو أسلوب العقل الوحيـد لمواجهة التحديات وفهم المتغـيرات .. والقرآن يـأمر بالتدبر والتـعقل والتـفهم فى كل آية . والله يقول للكافرين .. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ (١١١)﴾ [البقرة] .. فالدين عندنا عقل واقتناع ومنطق وليس مجرد عاطفة واستسلام أعمى .

إن المجتمع الإنسـانى اليوم أشبه بكائن تعـملق وتضـخم بشكل يقتضي منه أن ينسلخ عن إهابه ويغير جلده .

والله يضرب لنا المثال فى الزواحف والحـشرات واليرقات التى تنمو وتتـضخم وتمر بعدة انسـلاخات تنضـو فى كل مرة جلدها لتلبس جلدا جديدا أوسع وأكثر ملاءمة لمقاسها الجديد ..

وبرغم أن الجلد يتغير إلا أنها تظل هى هى نفس الحشرة .. إن الشكل يتطور دون أن يضـيع المضمون .. بل إن المضـمون يتـأكد أكثر وأكثر فى إهابه الجديد .

وهذا هو نفس الشىء فى الإسلام ..

إن الإسلام لن يضيع بالاجتهاد والتحـديث ولكن سيتأكد أكثر

وأكثر وجـوهره سـوف يلمع أكثر وأكـثر فى الأشكال الاجتمـاعية الجديد المتطورة .

والعكس صـحـيح فإن الجـمـود هو الذى سـيضـيع الجـوهر الإسلامى النفيس وهو الذى سوف يسجن الحـيوية الإسلامية فى زنزانة التعصب والأفق الضيق .

إن المسلمين الأوائل قطعوا يد السارق بالنص القرآنى الصريح .

والفقهاء قالوا إن الحد لا ينطبق فقهيا على السارق من مال عام كمـا لا ينطبق على الرشـاوى والعمـولات والاختلاسـات ولا على تزييف النقود وأنه لا ينطبق إلا على السرقة من مال خاص بحجة أن كل هذه متغيرات استجدت فى مجتمعاتنا العصرية وجاءت مع القطاع العام والتأميم والنظم الاشتراكية ولا توجد عنها نصوص.

ولم يحاول أحـد أن يجتهـد مع أن هذه المتغيـرات جاءت معـها بسـرقـات هائلة بالملايـين .. سـرقات أخـطر ألف مـرة من نشل محفظة أو كسر خزينة .. لأنها حولت الاقتصاد كله إلى غربال من الخروق وجوعت الشعوب وحرمت الملايين .

ثم جاءت المخدرات .. الهـروين والكوكايين والماكسـتون فورت وعقاقيـر الهلوسة .. فهوت كالمطرقـة على عقول الشباب فأتلفـتها وأهلكتها .

وتلكأ الاجتهاد ..

وتردد المشرع

وتباطأ الفقهاء واختلفوا ..

وكثرت حوادث الاغتصاب والعنف والاعتداء على الفتيات وفى قضية الخلافة والحكم والملكية والجمهورية والاشتراكية والرأسمالية استعرت الخلافات أكثر وأكثر وتاه المسلمون فى بحر غريق من الجدل وخرجت كل فرقة على الأخرى بالمدافع الرشاشة.. وادعى كل واحد أنه أصولى .

ولا حجة عند الأصولى ، ولا نص يكفى لأن يحمل مدفعه الرشاش ليقتل من يخالفه ، وإنما هو ضيق الأفق وضيق الصدر وهوي النفس وغرور الرأى الذى يخيل لصاحبه أنه كل شىء .

وإنما نحن أمام وضع يحتاج إلى فكر جديد .

وإذا كانت هذه الخلافات تدل على شىء فإنما تدل على حاجتنا إلى فكر جديد وإلى اجتهاد وإلى أن تكون عندنا فلسفة إسلامية وفكر إسلامى نشط .. وسماحة خلق .. وتواضع نفس .. وألا تدعى فرقة أنها أصولية وأنها الوحيدة صاحبة الإسلام الكامل وصاحبة القول الفصل .. وإنما يستمع كل فريق إلى الآخر فى رحابة صدر دون أن يطلق الرصاص .. ودون أن يطلق الاتهامات.. ودون أن يكفر الرأى المخالف .

وهذه السماحة .. هى الإسلام عينه وليس ما يقوله الأصوليون ولا ما يدعيه المتعصبون ولا ما تزعمه كافة الفرق التى تدعى كل منها أنها الفرقة الناجية .

إن الصورة الشائعة عن المسلم الأصولى بأنه إنسان رافض متشدد عابس متجهم عنيف دموى هى صورة كاذبة .. فما هكذا كان المسلمون الأوائل وما هكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام .. وإنما كان مثالا للحلم والصبر وسعة الصدر والتواضع وحسن الاستماع إلى الخصم والجدل بالتى هى أحسن والعفو عن المسىء.

ألم يدخل مكة غازيا منتصرا علي أعداء الأمس الملطخى الأيدى بدماء المسلمين ليقول فى سماحة ومغفرة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

فأين هذا من أصولية الخومينى الذى دخل طهران منتصرا ليعلق خصومه على أعواد المشانق ، ويقول بالتصفية الدموية الكاملة لحكم الشاه ولمجاهدى خلق ولكل من يفتح فمه برأى مخالف ..

لقد أخذ صاحبنا الإيرانى عن النبى لحيته وجلبابه ولم يأخذ عنه عدله وحلمه ومغفرته ومكارم أخلاقه .

وهذه أصوليتهم

وهذه هى السنة المطهرة فى مفهومهم الأصولى

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام ترك لنا تاريخا يشهد على سلوكيته المثلى ويفصّل سنته الكاملة ويعرفنا بالأصولية الحقة لعشاق الأصول ممن يأتون بعده .

وليست الأصولية دعوى بل سلوك .. وليست جدلا بل عمل .

وليست شعارا بـل فقْه مُحكم وليست مسألة خـلافية بل نهج ثابت .. ويسهل على كل صاحب دعوى أن يتاجر وأن يزايد في أي موضوع إسلامي ، ولكن يسـتحيل عليه أن يتاجر فى مـحمد عليه الصـلاة والسـلام ولا أن يزايد عليـه ولا أن يسـاوم فـى سنتـه ومـحمـد عليه الصـلاة والسلام والصـفوة من أولى الألبـاب من صحابتـه كانوا مثالا فى حب العلم وفى اسـتزادة منه وكانوا أهل تفكر لا أهل تعصب .

ولقد فهم عمر بن الخطاب حـد السرقة الذى أتى به القرآن فلم يقطع يدا فى عـام المجـاعـة برغم قطعـيـة النص وصـراحـتـه .. ولم يفـعل عمـر هذا مخـالفـة منه للنص القـرآنى بل فعله طاعـة وتفهما وتفقها لما فيه ، وإدراكا منه لروح الشريعة قبل نصـها .

وهذه هى الأصولية فى الفهم .

وهى غيـر أصوليـتهم الجامـدة التى لا تتخطى الحـروف ، لقد ترك لنا المسلمون الأوائل أمثلة حية لفهمهم لقرآنهم ولن يستطيع أحد أن يخـدعنا بحجـة الأصوليـة .. فنحن فى مصر بـلد الوداعة والسماحة والاعتدال أكثر أهل الإسلام قربا من الأصول .

إن أخـواننا الشـيوعـيـين يتناسـون كل النمـاذج الإسـلاميـة ولا يتمثلون إلا بواحـد هو أبى ذر الغفارى رضي الله عنه ويرون فيه وحـده نموذج الإسلام الصحيح ، لأنهم قـرأوا فى سيرته أنه كان ثائرا على الأغنياء ، وكان عنيفا فى ثورته ، وكان يؤلب عليهم

الخليفة ويطالب بنزع ملكياتهم وتوزيعها على الفقراء ، وكان يهيج عليهم الفقراء أينما سار .

وتحفظ لنا سيرة أبى ذر رضى الله عنه هذه الحكايات ولكنها أيضا تحفظ لنا أقوال ومواقف الصحابة من أبى ذر ، بل أكثر من ذلك رأى الرسول عليه الصلاة والسلام حينما طلب منه أبو ذر الولاية وكيف أنكر الرسول عليه الصلاة والسلام طلبه وكيف أجابه فى أدب النبوة بأن الولاية مسئولية ، وعبء وأنه لا يصلح لهذا العبء ولا يقدر عليه ، ولم يكن هذا لنقص فى إسلام أبى ذر وإنما لما فى طبعه من عنف وانفعال وسرعة غضب ولما فى صحته من وهن .

وإجابة النبى عليه الصلاة والسلام هى مؤشر صحيح لجوهر الدعوة الإسلامية ولصلاحيات الولاية ولنظام الحكم الإسلامى الأمثل ، وأنه نظام يغير ما فى الناس بالحسنى واللين والقدوة الطيبة وليس بالثورة والعنف والانقلاب .

وسيرة النبى عليه الصلاة والسلام على مدى أربعين عاما مع خصومه وأصحابه كانت تأصيلا وتأكيدا لهذا الجانب فى الإسلام.. وكانت ردا كافيا لكل من قال بالعنف كأصولية إسلامية.

ألم يصبر النبى عليه الصلاة والسلام على أذى الكفار ثلاث عشرة سنة يتلقى أذاهم وعدوانهم ولا يرده عليهم حتى أذن الله

للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم .. وقرر القرآن رخصة العنف لضرورة واحدة هى الدفاع عن النفس ، ولدفع عنف مماثل يهدد الحياة ، وأن يكون هذا بقدر ذاك ولا زيادة .

وكل هذه مبادىء مقررة وثابتة فى أصل الدعوة .

لكن تجار العنف وسماسرة الانقلاب لا يكفون عن الترويج لبضاعتهم الخاسرة طلبا للسلطة والجاه والتحكم والدنيا ، ولأهداف وغايات ومصالح لا علاقة لها بالدين وإن اتخذوا الدين ستارا ومطية إلى غايتهم ..

والمشكلة فى هذا العصر أن كل الفرق تلبس قناع الدين ، وأن الكل يرفع راية لا إله إلا الله ، ويربى اللحية ويتكلم ، عن الأصولية وفى القلوب ما فيها ..

ومن واجبنا تصحيح ذاكرة المسلم عن التاريخ وكشف المؤآمرة الواسعة لتشوية الإسلام والمتاجرة به فى لعبة السياسة واستعماله لقلب نظم الحكم ، وإشعال الثورات وتأجيج الصراع الطبقى وإقامة المذابح الدموية ، كما أرى من واجبنا أن نحارب الاتجاهات الرجعية الداعية إلى الجمود وتعطيل العقل وتعويق المسيرة الشريفة التى بدأها الإسلام من أربعة عشر قرنا نحو مزيد من العلم والعمل والتقدم .

ومن الأصول الإسلامية احترام العقل والتجديد المفيد النافع والتطوير نحو الأحسن فى كل شىء والحض على العلم والعمل .

ومكارم الأخلاق والاعتدال والوسطية المثلى فى السلوك والحياة .

ومن الأصولية أن يفكر المسلم ويجتهد كلما استجدت متغيرات لا يجد لها نصا وألا يتجمد على التقليد .

وأمام متغيرات مثل الإيديولوجيات الديمقراطية والصراع حول الرأسمالية والشيوعية ومشاكل الاقتصاد الحديث ونظام البنوك ومسألة الفوائد والأشكال الجديدة من الجريمة والسموم البيضاء والإرهاب والدور الإعلامى للسينما والمسرح والتليفزيون .. لابد أن يكون للإسلام فكر وعطاء واجتهاد وألا يتوقف لمجرد أن هناك فرقة أو فرقا قررت أن تتوقف فإن الزمن نفسه لن يتوقف لأحد .

الفن حرام أم حلال ..؟

الفن أحد المواهب التى يتميز بها الإنسان وهو مهارة ينفرد بها مثل الكلام والتفكير وحرية الاختيار فهو الحيوان الوحيد الذى يتكلم ويفكر ويبدع ..

والفن هو تجلى أحكام الأسماء الحسنى الإلهية « الخالق والبديع والحكيم والعليم » فى النفس الإنسانية التى جعلها الله بحكم كرمه قابلة لعطاء الحكمة والعلم والخلق والإبداع .. فكما تجلّى السميع فى سمع الإنسان والبصير فى بصره كذلك تجلى البديع فى إبداعه .. وتجلى الخالق فيما يخلق الإنسان من فنون .. فالفنون كلها مهارات طبيعية نولد بها .. وهى بعض عطايا الله ونعمه .

ولكن الإنسان الذى ولد حرا ومختارا وخطاء ومتمردا لم يوظف تلك المهارة دائما فى الخير وإنما انحرف بها أحيانا إلى الهوى والغرض والغواية وإلى مجرد جلب الشهرة والجاه

والتأثير أحيانا بالنفع وأحيانا بالضرر فى الآخرين .

فالفن الذى يربّى العواطف رأيناه فى أكثر أفلام السينما يلعب بالعواطف ويلهو بالعقول والشعر الذى يسمو بالوجدان رأيناه فى أكثر الأغانى يهبط بالوجدان ويسفل بالمشاعر والموسيقى التى ترتفع بنا إلى آفاق الجمال والتأمل رأيناها تهبط بنا إلى الترقيص وحركات النسانيس وقل أكثر من هذا فى هزليات المسارح وفى الحوار البذىء وفى المشاهد المسفة .. وفى عروض أقرب إلى الأفعال الفاضحة فى الطريق العام .

ولأن الفن يدخل إلينا الآن خلسة من تحت الباب فى الصحيفة اليومية والكتاب ويتسلل إلينا فى غرفات النوم فى التليفزيون والكاسيت . فقد تحول إلى وسيلة جهنمية فى تشكيل الأجيال وفى تربيتها أو إتلافها وغسل مخها .

وبهذا أصبح الفنان قادرا على أن يقتل وأن يضيع وأن يميت أمة كما أنه قادر على أن يحييها ويبعثها ..

ولأن الفن سلاح قاتل فلا يصح أن يكون حرا حرية مطلقة ، وحرية الفنان وحرية الفن دعاوى غير صحيحة ، فالفنان حر مسئول محاسب ، وكحامل أى سلاح يمكن أن تسحب منه رخصة استعماله إذا أساء هذا الاستعمال .

وإذا كان الفنان يطالبنا بأن نحميه فالجمهور القارئ والمشاهد وهم بالملايين لهم هم الآخرون حق الحماية من الإسفاف الذى

يعرض عليهم .

وكلمة فنان لا تعنى العصمة من المساءلة ولا تعنى الحصانة ، بل على العكس تعنى المسئولية ومحكمة النقد وسيف الرقابة حماية ضروية للمواطنين .

والتليفزيون يحتاج إلى أكثر من هذا لأنه يباشر تأثيره على الطفل والصبى واليافع وعلى المرضى فى أسرتهم وعلى المراهقين فى خلواتهم .

التليفزيون فى حاجة إلى مجلس حكماء يمنع هذا السيل الهابط من الأفلام والعروض المبتذلة والأغانى الساقطة والحوار المسف والرقص البذىء .

وليس هذا كلام فى الدين .. وإنما فى أوليات علم الاجتماع .

أما الفنان الذى يسألنى .. هل ما أفعله حلال أم حرام ؟

فأقول له .. أنا لا أفتيك .. ولكن يفتيك قلبك .

اسأل نفسك هل ما تفعله نافع ومفيد للناس ؟ أم تراه ضارا بهم ؟.

وستعرف أين أنت .

ولا مانع من أن يكسب الفنان ويزداد غنى ولكن من طريق يجعل مشاهديه وقراءه يكسبون هم الآخرون ويزدادون به ثراء وغنى .

أما الفنان الذى يهبط بقرائه وينزل بمشاهديه فإن ما يأخذه من

مال لا يدخل فى باب الكسب لكن فى باب النشل .

والذى يسـأل .. هل هناك فن ردىء .. وكيف يمكن أن يسمى فنا برغم رداءته .. أقول بل هو فن ولا يمتنع على الفن أن يكون رديئا .. لأن الفن مهارة وموهبة والموهبة يمكن أن يوظفها صاحبها فى الخير ويمكن أن يوظفها فى الشر .. وهى كالقوة العضلية وكحدة البصر وحدة السمع وسرعة البديهة والذكاء وكلها مواهب أحيانا توظف للخير وأحيانا للجريمة .

والفنان يمكن أن يكون شريرا فيعبر عن شرّه فى فنه ومن الأعمال الفنية العالمية ما يقطر تشاؤما ومنها ما يسيل حقدا ومنها ما ينبض بالعدوانية ومنها ما يحض على الفوضى ومنها ما يدعو إلى المادية والإلحاد والرفض والعدمية .. وأصحاب هذه الأعمال فنانون عالميون من حملة النياشين والجوائز .. ولهم جاه وشهرة وجمهور .. لهم يخوت وقصور .

ولكن هذا الفن السالب يدخل عند الله فى باب الذنب وإن كان فى ناموس الدنيا يدخل فى باب الحسنات ويدخل أصحابه فى باب العظماء .

ومقاييس الدنيا تخطئ أحيانا وهى تتغير دائما وفى جميع الأحوال .. فكم من ملايين المشيعين ساروا يبكون خلف جنازة ستالين .. وكم كتابا مجده وكم مقالة عظمته وكم تمثالا ارتفع له وكم عملة ذهبية صكت باسمه .

ثم تغيرت المقاييس فأصبح المجد ملعونا والمعظم مطرودا .

ولا ندرى ماذا يجرى غدا فى العالم الذى يتغير فيه كل شىء .

وما يجرى فى بورصة العظمة الفنية أعجب .

وبالأمس بيعت لوحة للفنان فان جوخ بأربعين مليون دولار .. وفى حياته كان يحاول أن يبيعها برغيفين فلا يجد مشتريا .

وبيكاسو مات فى قمة مجد فنى ولا ندرى بعد مائة سنة ماذا يقول الفنانون أنفسهم فى تراثه الفنى .

أغلب الظن أن معظم أعماله سوف تدخل فى باب العبث والتجارب العبثية .

ويظل هناك مقياس لا يخطىء ولا يخيب لكل أعمال الإنسان فنية كانت أو فكرية أو فلسفية . أو سياسية أو اجتماعية هو المقياس الذى جاء به القرآن .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ (١٧) ﴾

[الرعد]

فالفن الخير البناء هو الذى سيبقى لصاحبه وهو الذى سيغدو له حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة .

أما الفن الضار والهدام والهابط .. فهو الخسار والبوار مهما جلب لصاحبه من ثراء ومال ومجد دنيوى ومهما حمل له فى قبره من جوائز وأوسمة ونياشين .

وكم من فنون هى فى النهاية مجرد لهو وقتل للوقت ومضيعة للعمر .

وكم من أشعار عظيمــة السبك وهى مع ذلك غزل فى المذكر أو مدح لحاكم ظالم أو هجاء موتور أو زهو مغرور أو تأله فارغ .

وهى فن مـتألق وكلمــات تخلب اللب ولكنها فــى الآخرة أوزار يتمنى صاحبها لو لم ينطق بها ، ووصمة يتمنى لو يبرأ منها .

إلـى أيـن نسـير ؟

يلفني عـالم من الهدوء والسـكينة والشاعـرية كلما عـادت بى الذاكرة إلى أيـام زمان وتأتى المشاهد إلـى خيالى ومـعهـا صوت الوتريات الموسيـقية الرقـيقة وقـصائد عبد الـوهاب وياليل ياعين وكلنا نحـب القـمـر وشـجـانى نوحك يابـلبل وكـروان حـيـران ومطولات أم كلثوم التى كانت تستمر ثلاث ساعات والأذن تسمع فى استـرخاء وخلو بال والرؤوس تهـتز فى طرب وكـمان ياست كمـان .. لا استعـجال ولا قلق ولا توتر .. وفى الصـفوف الأولى تجلس الصفوة مـن رجالات مصر من أطباء ومـهندسين وفنانين وبكوات .. والشـوارع خاليـة آخر الليل وأفـيشات الأفـلام تسطع عليها الأضواء .. والوردة البيضــاء .. والعزيمة .. فجر الإسلام .. دعـــاء الكروان .. ورذاذ المـطر المنعش .. وطـعم سندويتـش لذيذ بالفول وأحلام رفافة تهدهد القلب .

أيامهـا لم نكن نعرف لنا عـدوا سوى الإنجليـز .. ولم تكن قد

ظهرت بعد التيارات الشيوعية والماركسية التى قسمتنا إلى يمين ويسار ، وجعلت منا أعداء لبعضنا البعض ، وأشعلت البغضاء والكراهية فى الشارع الهادئ .

كانت أياما رخية من الصداقة والمحبة والمودة .

وأستيقظ فجأة من الذكريات وكأنما لطمنى الزمن بعنف وأتلفت حولى فى العالم اليوم وأقرأ على الجدران أفيشات الأفلام وأتابع بذهول تطور العناوين .. بركان الغضب .. المنحرفون .. المخربون.. الوجه المدمر .. العيون النارية .. صرخة الشيطان .. وكر الأشباح.. قوة الانتقام .. السيف الملعون .. المشاجرة الكبرى .. عصابة العنكبوت .. التحدى الرهيب .. الرغبة الملتهبة .. المرأة والكرباج .. القتلة ..

وأفتح الراديو فأسمع ضراخ الديسكو وموسيقى نحاسية تصك الأذن وغناء أشبه بالتشنجات .. وفى المسرح لا أرى فى الصفوف الأولى إلا تجار مخدرات وباعة كاوتش وتجار شنطة وسماسرة عملة ولا أرى من الفنون المعروضة إلا ما يرضى مزاج هؤلاء من نكات بذيئة وهزليات هابطة .. ما أسرع ما تطورنا ..

فإذا نقلت مؤشر الراديو بين المحطات العربية سمعتها تشتم بعضها البعض ، وسمعت قذائف الاتهام بالخيانة يتبادلها الإخوة فى فحش وإسفاف .. ولا أرى جارة إلا وهى فى حرب مع جارتها .

فإذا فتحت الصحيفة طالعتني أعمدة طويلة عن التلوث والإرهاب وخطف الطائرات وتفجير السيارات الملغومة واندلاع الحروب والمجاعات وأزمة الطاقة وأزمة الغذاء وارتفاع الدولار وهبوط الجنيه والتحريض على الإضراب والترويج العلنى للفتن .. والإشادة بالتخريب .. والحض على الفوضى .

وفى الشارع تدفعنى الأكتاف وأطالع المحجبات والمنقبات والعاريات على مقعد واحد فى أتوبيس .. وأرى الوجوه هضيمة شاحبة فيها غل وكمد وأرى النظرات متوترة والحركات عصبية وأرى الكل يهرول وكأنما ينزل على ظهور الجميع كرباج خفي .. وأخرج من زحام إلى زحام . وأمام الفاترينات أرى طوابير وعيونا جاحظة تلتهم المعروضات فى نهم وشبق .

وفى القاهرة ألف مسجد .. ولكن لا أرى فيها طمأنينة الإيمان التى كنت أراها فى الأربعينات والثلاثينات ..

ماذا جرى للدنيا ؟

وفى أى زمن نعيش ؟

هذا زمان الضنك ياسادة برغم العلم والاختراعات والفيديو والتليفزيون والنزول على القمر واختراق الفضاء وتحطيم الذرة وجراحة الليزر وزرع الأجنة والهندسة الوراثية وعجائب الكمبيوتر .. لقد تقدمنا .. كسبنا الكثير هذا صحيح .. لكن ما خسرناه كان أكثر .. خسرنا النبل والإنسانية والمحبة والوداعة

والبساطة والشهامة والجمال والأناقة والنظافة .

أين شجاعة أجدادنا الذين كانوا يلتقون وجها لوجه وسيفا لسيف من نذالة وخسة الأحفاد الذين يرسل الواحد منهم للآخر طرْداً ملغوما لينفجر فى وجهه أو فى وجه السكرتير البرىء الذى يصادف أن يكون أول من يفتح الطرد .

وهذا الجبان الآخر الذى يزرع قنبلة فى طائرة لتنفجر فى الجو وتقتل أطفالا ونساء وشيوخا من جنسيات لا يعرفها وليس بينه وبينهم عداء .. ثم يدعى بعد ذلك أنه بطل وأنه صاحب قضية ثم يجد جبناء آخرين يدافعون عنه فى الصحف ويصفونه بأنه مكافح ومناضل .

فى أى زمان نعيش ؟

لقد قرأت بعينى فى الصحف من يكتب ليسمى هزيمة ١٩٦٧ نصراً ، وقرأت فى عام ١٩٧٣ من كتب ليسمى العبور والانتصار هزيمة .. وكأنما أصبح قلب الحقائق فصاحة والتزوير بلاغة يتباهى بها صاحبها .

أين زمان الحياء ؟

لقد وقعنا نحن الدول الصغيرة النامية فى الشباك العنكبوتية للماكرين الكبار .. وهم قد وضعوا الكلام فى أفواهنا فأصبحنا نتكلم كما يريدون ونقتل من يريدون أن نقتل ونحارب من يريدون أن نحارب ونظن أنفسنا أحرارا ننفذ مشيئتنا وما ننفذ فى

الحقيقة إلا مشيئتهم .. ومشيئتهم هي الفساد والإفساد بكل السبل .. وبأيدينا لا بأيديهم .

ونحن نوفر لهم الدم والمال وسوء السمعة فنقوم بقتل أنفسنا بدلا منهم وتمزيق وحدتنا بدلا منهم ..

تركوا لنا المهمة القذرة لنؤديها .

ونحن نؤديها بنشاط .. بل نتنافس على تأديتها ..

أنا لا أتهم أحدا .. فنحن جميعا متهمون .

نحن صناع هذا الزمن .

والاعتراف بالحقيقة هو الأمل فى إصلاح المسار .

أصلح نفسى وتصلح نفسك ويصلح الكبار أنفسهم ويجد الجبناء أنفسهم معزولين محاصرين محتقرين لا يعبأ بهم أحد ولا يسمع لهم أحد .

وربما كان عزاؤنا أن البلاء شامل والمصيبة عامة .

فهل لندن اليوم هى لندن الثلاثينات .

وهل باريس اليوم هى باريس الثلاثينات .

إن التدهور شمل الجيل الثانى فى أوروبا وإنجلترا وأمريكا .

فلم يخرج هذا الجيل قمما تضاهى بيتهوفن وشوبان وفاجنر وشابلن بل أخرج الخنافس وألفيس بريسلى ومايكل جاكسون وبورى جورج وحفنة من أبطال الكارتيه ووصلت السيارات الملغومة إلى قلب الشانزليزيه ، وانفجرت القنابل فى مطار هيثرو ،

وانطلق الرصاص على البابا فى الفاتيكان ، وتكررت حوادث الخطف فى روما ، ولم يسلم مكان فى أوروبا من الإرهاب والفوضى والمخدرات ولم تسلم أيدى الكبار الذين يديرون ويحيكون المؤامرات من أن تحرقها النار .. والمفاعل الذرى الذى يجهزون فيه وقود البلوتونيوم لتحضير القنابل الهيدروچينية للترسانة الروسية .. وصل خطره إلى شاطىء السويد وأطلق سحابة من الإشعاع القاتل ظللت أوروبا بأسرها .

لن يسلم الكبار من النار التى يشعلونها للصغار .

التهديد سوف يشمل الكل .

والضنك سوف يخيم على الكل..

وحينما تغرق السفينة لن ينجو أحد .

الكبار سوف يسبقوننا إلى القاع .

لا غالب ولا مغلوب .

جزراً صغيرة لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ولكن برغم الصورة العامة القاتمة لتداعى الحوادث فإن هناك جزراً صغيرة من الأمل فى البحر المظلم الذى ارتفع فيه الموج .. جزرا من الخير .. ليست دولا لكن أفراد وجماعات وأقليات هنا وهناك فى كل مجتمع .

أقليات نذرت نفسها للخير وللعمل البنّاء .

أفـراد وقـفـوا حـيـاتهم على القـراءة والعلم والتـأمل والتـدبر والتفكير .

وآخرون وقفـوا حياتهم على التجريب فى المعامل والمخـتبرات والمراصد ومخترعون يبحثون فى حل طلاسم الطاقة .

وزراعيـون يبحـثون فى استنبـاط الغذاء من الصـحارى ومن قـيعـان البحـار ، وأطباء يسـهـرون لاكتـشـاف أسـرار الصحـة والمرض..

وأهل محبة ووداعة ينشرون المحـبة بالقدوة وبالسلوكية المثلى وأهل بصـيرة يقـدمون نماذج عليـا من الإيمـان والعمل الصـالح والحياة البارة .

وأهل صدق لا تفسدهم رشوة ولا تبدلهم غواية .

ومن أجل هؤلاء يحفظ الله أركان الدنيا ويبقى عليها برغم كثرة المفاسد والانحرافـات ، لأنه من ظهور هؤلاء ومن أصلابهم تخرج الصفوة مـن الهداة والمصلحين الذين ينتقل بهم التـاريخ من حال إلى حال .

وتبقى فى الذهن صورة عجيبـة لهذا الزمن العجيب الذى جمع بين أقـصى الشـر وبين أقصى الخـيـر وبين أقـصى العلم وبين أقصى الجهل وبين أقصى الوفرة وبـين أقصى المجاعة وبين غاية الحـقد والرفض وبيـن تعدد وسـائل الاسـتمـتـاع ويسر العـيش وسهولة الإشباع وبين قمة المرح وبين حضيض الاكتئاب .

ذلك الزمان الذى تجد فيه النفس فرصها اللانهائية لتنفع وتضر وتلك فى نظرى أكبر ميزاته .. إنه زمان الفرص .

والسعيد من حاول أن يغتنم لنفسه فرصة خير ومناسبة نفع وأن يجد لنفسه موطئ قدم بين الأقليات الذين ذكرناهم .. الأقليات العاملة فى صمت .

ولينسى مؤقتا ماذا يكسب وماذا يخسر .. فإن الأغلبية إلى خسارة .. وأكثرهم خسارة هم الذين يبدون اليوم أكثر وجاهة وأكثر مكسبا .

وسوف يسحب التاريخ بساطه فيمحو آثارهم جميعا ولن يبقى فى قائمة الذكر الحسن إلا أنفع الناس .

هل هم رجال أم عيال ؟

دار الزمـــان دورته ولم يعد الشـيوعـى يستطيع أن يقـول إنه تقـدمى وإن غـيـره من المذاهب رجـعى ، ولا عـادت الماركسـيـة تستطيع أن تدعى أنها الوعد المأمول بالرخاء لكل الشعوب ، فأكثر الدول التى اختـارت الماركسية أصـبحت أسوأ فـاترينة للمذهب .. والواقع فى كل مكان أصـبح يقـول شـيئـا آخـر غـير مـا تقـوله المنشـورات ، ومـعظم الشـعـارات التى عـشنا على أوهامــهـا فى الخمسينات أصبحت أكاذيب .

ولم تعد التـقدميـة ولا الرجعية رهـنا بمذهب ولا الرخاء رهنا بأيديولوچية وإنما ظهـر شىء جديد اسمه التكنولوچـيا والاندفاع الصناعى ، وعلوم جديدة مـثل الهندسة الوراثية ، وعلوم الفـضاء والتخليق الكيماوى للمواد والـكمبيوتر ، وأصبح بالإمكان أن تحل أزمة الـغذاء وأزمة الإنتـاج داخل معـمل ودونما حاجـة إلى ثورة وشعارات وصراع طبقى وحكومات سلطوية قمعية تسجن الناس

وتقتلهم ثم لا تفعل شيئا بعد ذلك ولا تقدم رخاء بل يندفع الرفاق الثوريون ليقتل بعضهم بعضا على القمة بحجة الولاء للمذهب وبحجة خدمة الشعب .. ولا مذهب هناك سوى حقد يأكل بعضه بعضا ونزوات للتحكم والتسلط يكون الشعب دائما أول ضحاياها .

ولقد ادعت الشيوعية منذ ميلادها أنها ستقوم بهذا الاندفاع العلمى والصناعى والتكنولوچى ولكن خطوتها كانت قصيرة ونفسها كان قصيرا لأنها اندفعت من نقطة صراع ومن بداية قهرية قمعية فما كادت تتقدم خطوات حتى توقفت ، وما لبثت اليابان الرأسمالية وأمريكا الرأسمالية بل وحتى ألمانيا الغربية المهزومة فى الحرب أن سبقتها وتقدمت عليها .

وتحولت روسيا إلى الطرف الرجعى الذى يستورد الخبرة والتكنولوچيا من بلاد الخصوم .

واعترفت الصين بأخطاء ماو وفتحت أبوابها لأمريكا .

أما البلاد الأصغر فكان حظها أسوأ وإعلانها عن فشلها أبلغ .

ثار العمال فى بولندة وخلعوا صورة لينين ووضعوا مكانها صورة البابا ، وتدهور الاقتصاد البولندى وأصبح يعيش على صدقات الأعداء ، واشتملت المجاعة على جميع أرجاء أثيوبيا ، ورأينا هونيكر فى ألمانيا الشرقية يمد يده إلى ألمانيا الغربية يطلب المعونة أما المجر وتشيكوسلوفاكيا مهد صناعة الصلب فقد وقفت « محلك سر » منذ أن داستها الدبابات السوفيتية أيام دوبشك .

أما عدن فقد رجعت إلى الوراء إلى عصر الغابة إلى قبلية بدائية مخزية ورفاق يقتل بعضهم بعضا ويفجرون بلادهم بالقنابل والصواريخ (أحداث يناير ١٩٨٦) .

وظهر في معسكر اليسار بلاد مثل ليبيا تشتغل بتصدير الرعب إلى الدول العربية وإلى الدول الأوروبية وتقتل الأبرياء تحت شعارات ثورية زائفة .

وإذا كان الواقع يعلمنا شيئا فهو أن نكف عن هذا الهراء الأيديولوجى ونضع أيدينا على المفتاح الوحيد للتقدم وهو التكنولوچيا والعلم والمنهج التجريبى وندرك تماما أن هذه الأشياء لا وطن لها ولا مذهب فلا توجد تكنولوچيا يسارية وتكنولوچيا يمينية ولا علم روسي ولا علم أمريكى .. فالماء يغلى فى درجة مائة فى كل البلاد، وقوانين الجاذبية صالحة فى كل موطن .

والتربة الضرورية لنمو العلم هى الاستقرار والأمن والديمقراطية والصلح الاجتماعى وليس الصراع الطبقى والتآمر والشجار .

إذا تحول الخمسون مليونا من المواطنين فى مصر إلى خمسين مليون عقل يفكر ويعمل كان هذا التحول هو التقدمية .

والعلم والتكنولوچيا والإنتاج يصنع الرخاء ثم يأتى الرخاء بدوره فيدفع العلم ويدعم التجربة فالتجارب اليوم مكلفة (المكوك تشالنجر ثمنه فوق الألف مليون دولار) .

وفوق كل شيء .. العقل البشرى .. الجوهرة الحقيقية والطاقة المبدعة الخلاقة التى تصنع بانطلاقها كل شيء .

إن تشغيل العقل وإطلاقه من قيوده وتوفير الظروف لعمله هو المفتاح الحقيقى لدخول هذا العصر وللجلوس على مائدة الأقوياء .

فهل نبدأ ؟ أم سوف نعود فنسمع فقهاء الماركسية يملأون الصفحات وينشئون المجلات يعقدون الندوات ويجروننا جرا إلى معارك طواحين الهواء بين اليمين واليسار وإلى مهاوى التخلف التى لا يريدون منها خروجا .

إن الواقع العربى انحدر إلى ما تحت الصراعات المذهبية فأصبح نهبا للصراعات الشخصية وما عادت المذاهب المعلنة إلا ذرائع .. ولأن الماركسية حكم سلطوى قمعى وشمولى فهو يعطى أسهل مبرر للتسلط .. ولهذا كان الاندفاع اليسارى والمزايدة عليه هو القاعدة بين كل القوى العربية .. ليس لأنه الأفضل للشعوب البائسة المطحونة ولكن لأنه الأفضل للحكام الذين يحلمون بالتسلط والانفراد بالرأى وسحق خصومهم .. كن ماركسيا تصبح لديك الفرصة لتقتل أكثر .. ومن هنا كان هذا الاختيار البائس لهذه القيادات الشبحية المختلفة والمشهد التراجيدى لهذه الساحة التى تتناثر فيها جثث القتلى .

ولن نخرج من هذا التخبط إلا إذا ولد الوعى من هذا المخاض المؤلم بأننا نسير فى طرق خاطئة ونضيع فى حوار مسدودة

ونرفع شعارات كاذبة ونجرى وراء مذاهب مضللة .

هل يمكن للإنسان المصرى أن يضيف شيئا لهذه الصيحة المدوية التى هى عنوان العصر .. صيحة العلم والتكنولوجيا والكمبيوتر والفضاء .

نعم أعتقد أننا نستطيع أن نضيف الخبرة التى استقيناها من سبعة آلاف سنة من الحضارة .. نضيف إلى العلم بعدا ثانيا هو الأخلاق الإيمانية الكريمة ونضيف إليه نقاء التوحيد .

ونستطيع أن نقول إن هذا هو البعد المفقود .. وأن العلم ينطلق إلى قوة وحشية إذا ترك بدون ضوابط خلقية .. وأنه بدون التوظيف الخلقى لهذه القوى العلمية فى الخير يمكن أن تتحول إلى قوى مدمرة تدمر أول ما تدمر أصحابها الذين أطلقوها من عقالها .. وأن العلم والإيمان هما وجها الإنسان الكامل الذى لا يمكن أن يكون كاملا بدونهما .

ولكن يجب ألا يأخذنا الغرور فنظن أننا جلسنا على كرسى الفتوى فنحن للأسف لم نبلغ بعد شأوا يذكر لا فى العلم ولا فى الإيمان الذى ندعو إليه .. وأغلب التدين الذى نراه من حولنا شكلى ولهذا ما يلبث أن يتحول إلى جدل ثم شجار ثم تناحر ثم يفعل بأصحابه ما فعل اليسار بأصحابه .. لأنه ليس تدينا حقيقيا بل زخرف شكلى وشعارات جوفاء .

وتلك ظواهر تخلف وعلامات طفولة حضارية (المنطقة العربية

كلها حديثة عهد بالاستقلال) ولهذا كان المسرح العربى ساحة أكثر من يلعب فيها عيال سواء الذين يرفعون منهم شعارات دينية أو شعارات ماركسية .. النضج غائب والأصالة مفتقدة .. وأهل الكمال أغلقوا عليهم أبوابهم وأصبحوا لا يتكلمون إلا همسا .

نحن متخلفون .. هذه حقيقة .. ويجب أن نعلم أننا نبدأ من الصفر .. وأننا برغم أن عندنا الحل وعندنا المفتاح السحرى للمشاكل فإننا لا ندرك قيمته .. بل أكثر من هذا نسيء استعماله .

وإلى أن يولد الوعى من المخاض الأليم وإلى أن يولد الجيل الجديد من الإنسان الكامل إنسان العلم والإيمان .. الإنسان القدوة.. المهدى الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. فإن الساحة سوف تظل مسرحا للثورة والقتل والانقلابات المتكررة بلا جدوى.

وانتظاراً لهذا اليوم أقول لكل واحد .. ابدأ بنفسك حاول أن تصلح ذاتك بدلا من أن تجلس على كرسى الفتاوى وتتهم الآخرين .

من هو بوذا ؟

جوتاما بوذا .. المعلم والحكيم والفيلسوف ، الذى ظهر فى سيلان منذ أكثر من ألفى عام ليهدى الناس إلى سبل السعادة ويدلهم على طريق الخير تحوّل الآن إلى أسطورة ولغز .

ولو سألت الآن أحد اليابانيين : ما هو بوذا ، لوجدت أجوبة بعدد من تسألهم .. فالبوذا هو أنا .. والبوذا هو أنت .. والبوذا هو الوردة .. والبوذا هو هذه العصا .. والبوذا هو الحقيقة ، والبوذا هو السر .. والبوذا هو شيئية أى شىء ، والبوذا هو جوهرك .. والبوذا هو العدم .. والبوذا هو الدائرة الفارغة .. والبوذا هو الصفر .. والبوذا هو الذى لا تعبر عنه الكلمة ، والبوذا هو الذى ليس كمثله شىء .

ويقولون لك ادخل فى « الزن » ZEN وأنت تعرف ، فإذا سألتهم : وما هو الدخول فى « الزن » ؟ قالوا : فقط اجلس جلسة تأمل هادئة ، وأغلق عينيك ، وأسكت صوت خواطرك ورغباتك ثم

تخطى نفسك واسمك وعلمك وعملك وحظك وجاهك وكل متعلقات هذه النفس وأطماعها .. ثم تجاوز هذا كله فتصل إلى الراحه وإلى السكون المطلق وإلى الفراغ والصفر ، فذلك هو البوذا ، وذلك هو حقيقة كل شيء فأنت الآن تلامس جوهر الوجود وأنت تلامس حقيقة جميع الموجودات فتلك حقيقة الوردة والثمرة والميكروب والعصا والكلب والشجرة والنجم وشكسبير .. وأنت الآن قد أصبحت ذلك الفراغ المليء ، فأنت الآن كل هؤلاء .. وهم جميعا أنت.. أنت الصفر واللانهاية .. وأنت الآن أدركت وعرفت فالزم ، فلا بوذا هناك وإنما نفسك فى إطلاقها وتجردها وشمولها محيطة متحدة متوحدة مع الكل .

ولهذا يقول العارف منهم : هناك بوذا لمن لا يعرف بوذا .. أما الذى يعرف فليس عنده بوذا .

أنت تحتاج للبوذا حتى تنتزع شوكة نفسك ، فإذا انتزعتها فقد انتزعت البوذا معها .

ويقول لك العارف :

قبل الدخول فى « الزن » تبدو لك الوردة وردة ، والعصا عصا ، فإذا دخلت فى « الزن » لا تعود الوردة ، وردة ، ولا العصا، عصا .. فإذا خرجت من « الزن » عادت الوردة ، وردة وعادت العصا ، عصا .

وحالة الصفر ، أو حالة « الفناء » ويسمونها « النرفانا » هى

منتهى أمل البوذى .. هى غاية السعادة والسكون الداخلى الذى لا تزلزله الزلازل ولا تحركه النوازل .

فإذا قلت له : كيف يكون الصفر هو الحقيقة ، وكيف يكون الفناء هو الغاية التى يسعى إليها العارف ؟! قال لك تخيل الزمن .. تخيل عمرك الذى تعيشه .. إنه ماض انتهى ، ومستقبل لم يأت بعد .. وبينهما نقطة افتراضية بين امتدادين .. لكن هذه النقطة أو هذا الصفر الحسابى هو كل الامتلاء الذى نسميه الحاضر أو الواقع الذى نقتتل عليه والذى ما يلبث أن ينصرم ويزول ويصبح شبحا خاويا فى برواز قديم اسمه الماضى .. وكل بكائنا وكل همنا واهتمامنا مشغول بهذا الصفر .. بهذه الدائرة الفارغة .. وإذا أدركنا هذا فسوف نستريح ، وينتهى عذابنا وينتهى بكاؤنا وتجف دموعنا .

إذا أدركت أن منتهى الامتلاء هو منتهى الخواء فأنت البوذى الواصل وقد عرفت فالزم .

ولكى يصدمك ويوقظك من غواشى الحس .. وغرور العقل الذى يحجبك فإن البوذى العارف يفاجئك بأمثال هذه الأسئلة المحيرة .

- ما صوت يد واحدة تصفق ؟
- ما شكل وجهك قبل أن تولد ؟

ما حقيقة البوذا فى كلب ؟

ويقرعك على ظهرك بمقرعة مثلما يقرع الطبيب المولود عند ولادته لكى يأخذ أول شهيق ويدخل الهواء رئتيه ، فهكذا يفعل بك لتصحو وتولد من جديد .

فإذا انفجر عقلك من التفكير دون جدوى ودون أن تجد جوابا شافيا على أسئلته قال لك .. ادخل فى « الزن » .. تجاوز عقلك ونفسك وحواسك واخرج من هذه المحارة التى تسجنك تصل إلى الحقيقة.. إن كلاما يخرج من شفتين باليتين محدودتين لن يكون إلا هراء .. فالحقيقة لا يمكن التعبير عنها بكلام ولا بحروف .. إنها إشراقة ، استناره باطنية تضىء وجودك كله .

وطائفة « الزن » تعود فى أصلها إلى « كاشابا » .

و « كاشابا » .. هو أحد تلاميذ بوذا .

وتحكى القصة أن جوتاما بوذا وقف ليلقى آخر دروسه على تلاميذه .. ولكنه لم يتكلم وظل صامتا ثم اكتفى بأن يقدم وردة .. وتساءل التلاميذ عن المعنى الذى قصده بوذا ما عدا كاشابا فإنه ابتسم .. فقال بوذا : « هو ذا أحدكم استطاع أن يفهم ما لا يمكن التعبير عنه بكلام .. وهو ذا يقوم من بعدى فيعلمكم » .

وهكذا بدأت طائفة « الزن » وطريقها الصمت والسكون والتأمل .

وليس لهذه الطريقة كتاب ولا تعاليم ولا تسابيح وتكاد تكون ضد النطق بأنواعه ، وتكاد تكون ثورة على ابتذال الحقيقة بالكلمات .

ولكن البوذية الأولى التى جاء بهـا بوذا منذ أكثر من ألفى عام كانت أبسط من ذلك بكثير .

إن جـوتاما بوذا الذى كـان الابن المدلل لعـائلة أرسـقراطيـة .. والذى ضـاقت نفـسه بالترف الفـارغ ، فترك قـصر أبويه ، ولبس الخرقة وهـام فى الغابات بحثا عن الحـقيقة .. قـد ظل يسـعى فى الأرض وقد طوى بطنه على الجوع .

وتحت شجـرة وقد بلغ منـه الصيام كل مـبلغ ، أشرقت عـليه الحقيقة وأدرك أن طريق السعادة الحق هو فى قمع النفس ، وكبح رغائبـها .. فإذا سكتت الرغبـة وخرست الشهـوة وانتهى الطلب ، سكت اللهاث المجـنون ، وانتهى الألم ، وانفتـحت فى القلب أبواب الحكمة .

النفس الراغبـة الشهوانية هى الحـجاب ، وهى سبب التعـاسة والألم ، فـإذا تجاوزتهـا وتخطيتـها تحـررت وبلغت غاية الراحـة والسعادة .

تلك كانت تعاليم بوذا .. وذلك كان طريق الفضيلة بالنسبة إليه .

ولم يبلغنا فى الآثار البـاقية عن بوذا أنه تـكلم عن إله أو آخرة أو حساب أو روح أو غـيب ، ومع ذلك فهو فى أكثـر أقواله يتكلم عن « الواحد » .

فماذا كان بوذا يعني بالواحد ؟!

بعد أن انطوت آلاف الـسنين علي تلك الأقوال ودخل عليـها كل

ما يدخل علي الأقوال والسير من تحريف وإضافة وتغيير ، لا يتبقي لنا إلا ما يتداوله البوذيون من تراث .

وهم يقولون في هذا التراث إن بوذا لم يكن يعتقد في ثنائية خالق ومخلوق .. وإنما اعتقد دائماً في واحدية تقول « بأن الخالق هو عين المخلوق كلاهما واحد » .

الكون هو عين المكون ، والكل واحد .

الله هو الكل ، هو مجموع السموات والأرضين وما عليها وما بينها .

يقول ذلك الواحد في أبيات غريبة من الشعر :

« إذا ظن القاتل أنه قاتل

وظن القتيل أنه قتيل

فإنهما لا يدريان ما خفي من أساليبي

حيث أكون أنا الصدر لمن يموت

وحيث أكون أنا الذراع لمن يقتل

وحيث أكون أنا القاتل والقتيل والسكين

وحيث أكون كل شيء حتي الموت نفسه .. » .

وتلك هى وحدة الوجود الهندية التى تجعل من الله ومخلوقاته شيئا واحدا .

ولم يكن هذا كل ما جرى على أقوال الحكيم بوذا ، بل إن البوذية انقسمت فى اليابان وحدها إلى ثلاث عشرة شعبة

ولم تكن « الزن » إلا واحدة من تلك الشعب . و « الشنتو » .. هى شعبة أخرى . و « للشنتو » فى عاصمة اليابان القديمة ألف وخمسمائة معبد من مجموع أربعة آلاف وخمسمائة معبد بوذى .

وطائفة « الشنتو » يؤمنون بالروح ، ويقدمون لها القرابين ويطلبون منها العون والهداية .. وللروح كهنة وخدام .

وفى كل معبد كاهن خاص يلجأ إليه المواطنون ليقرأ لهم طالعهم .

ولا نفهم ما هو الروح المقصود ، وكيف ومتى خرج هذا الروح من عباءة بوذا .

وطائفة ثالثة .. تؤمن بالآخرة والبعث وبعالم من الفردوس ، ينتهى إليه الناس ، كل الناس ، بعد أن يتطهروا وتكتمل نفوسهم.. ويؤمنون برب واحد ، هو « أميدا بودا » .. .. هو الله النور والحياة .. وهى طائفة حديثة خرجت إلى النور منذ ثمانمائة سنة .

وسبيل النجاة والهداية لكل إنسان فى هذه الطائفة هو أن يتوكل على « أميدا بودا » ويطلب منه العون والقوة .

ويقولون إن « أميدا بودا » هو نفسه بوذا بعد أن تخطى مرتبة البشرية ثم عاد فتجاوز مرتبة الكينونة ، وأصبح فى الإطلاق والتجريد لا سبيل إلى الوصول إليه .

ولكنه من فرط حبه أرسل رحمته المهداة « بودا ساتفا » ..

ليكون الواسطة بينه وبين كل المخلوقات ليأخذ بيدها جميعا إلى مراقى الفردوس الأعلى .

يقول مستر « سوجيتا » وهو رجل أعمال يابانى : إن طريقة « الزن » تحتاج إلى وقت ولا أحد يفهمها ، ولا تلائم هذا العصر.. ولكن ديانة « الأميدا بودا » يفهمها الكل .

وفى اليابان عشرون مليون من أتباع « الأميدا بودا » ويسمون مذهبهم طريق الفردوس PURE LAND SECT وطائفة رابعة هى طائفة « سوكا جاكاى » .. أو البوذية الجديدة .. وهى طائفة ترفض الغيبيات وترفض التفلسف وترفض الغموض .. ومعابدها عمارات مبنية على أحدث الطرز العصرية وتعمل بالأزرار والإلكترونيات .

ودينها التخلق بمكارم الأخلاق .. مجرد مكارم الأخلاق ولا شىء سوى ذلك .

وطوائف أخرى .. وأخرى ..

وأفكار بلا عدد ..

وطرائق تتشعب إلى الهدف ، وإلى نقيضه .

وأسأل نفسى : ترى لو بعث بوذا حيا وذهب إلى اليابان .. هل يتعرف على البوذا هناك .. وهل يعرف كل منهما الآخر ؟!

وهل نتعرف نحن أهل الأديان السماوية على ملامح مشتركة

بيننا وبين هؤلاء .

وهل يقف كل الأنبياء على أرض واحدة ، برغم تقادم العهد وكثرة التحريف وانقسام الأديان إلى عشرات الملل والنحل ؟!

نعم .. برغم ما طرأ على الوحى الذى تلقاه الأنبياء من تحريف، ورغم الفتن والانقسامات ، فإن الدارس للأديان دراسة مقارنة يشعر بالأرض المشتركة التى يقف عليها كل الأنبياء ، إنهم جميعا اتفقوا على الحض على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف وقمع الشهوات .. وتكاد تكون ألواح الوصايا واحدة فى الجميع .

وكلهم تكلموا عن الواحد .. وإنما اختلفت الروايات عن هذا الواحد بسبب تقادم العهد والتحريف .

وكلهم اتفقوا على أن جهاد النفس هو السبيل الموصل إلى المعرفة والاستنارة ، وسكينة القلب .

وكلهم قالوا بالبعث وحياة الآخرة ، حتى ديانات الفراعنة والديانات الوثنية .

وكلهم سلكوا بالتصوف على نفس الدرب .. بالصوم والصمت.. والخلوة .. والتأمل .. ورياضة النفس على الصبر والحلم وكظم الغيظ وتحمل المكاره والزهد فى الخسائس .

وكلهم كانوا طلاب علم وطلاب حق وطلاب عدالة .

وبرغم ما فعل الزمان بالتواريخ والسير والكتب والأقوال ..

فإن الأصابع جميعا كانت تبدو أنها تشير إلى شيء واحد .. إشارة مرتعشة أحيانا ، وإشارة ثابتة أحيانا .. ولكن دائما إلى نفس الاتجاه .

وكأن الكل يقول : هو ..

أحيانا بالإشارة ..

وأحيانا بالعبارة ..

وأحيانا يختلط الـ « هو » بالـ « أنا » .

وأحيانا يتحد الاثنان فى وجدان صوفى محموم فيصير النبى فى نظر أتباعه إلها ، والمخلوق خالقا .. وتلك خطايا المغالاة التى تؤدى بأصحابها إلى الكفر .

ولكن أهل البصائر سيرون نور البدر ، برغم السحب وبرغم غوايشي التحريف ، وبرغم الاختلاف .

ولهذا جعل الله القرآن كتابا مهيمنا على جميع الكتب لأنه وحده المحفوظ برحمته فهو وحده المرجع عند الاختلاف وبه تمت الكلمة.

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

ألم يقل الله لنبيه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨) ﴾ [غافر]

فما أكثر الرسل عبر التاريخ مما نعرف ومما لا نعرف ولكن ما أكثر ما تعرضت كلماتهم للتغيير والتحريف .. وصدق الله العظيم .

الخروج من مستنقع فرويد

النفس فى تصور فرويد .. غرائز تطلب الإشباع فى طرف ثم بيئة مادية هى مجال لهذا النفس ومحل لفعلها وانفعالها فى طرف آخر .. ثم لا شىء وراء ذلك .. لا روح ولا إله ولا غيب ولا شىء من وراء هذه الدنيا المادية الكثيفة الغليظة .

الغرائز واللاشعووالطاقة الجنسية هى الإله الحاكم والكل فى خدمته .

والخمس السنوات الأولى فى حياة الطفل هى التى تحدد سلوكيته ونفسيته إلى ما تبقى من سنوات عمره .

وما نفعله وما نفكر فيه وما نحلم به يتم فى جبرية وحتمية تبعا لما ينفثه فينا اللاشعور والعقل الباطن .

فالإنسان مدفوع دائما بقوى لا معقولة وملقى به نحو أفعال قهرية لا تبصر فيها ولا روية .. وهو مغلوب على أمره لا حيلة له ولا مخرج .. وكل ما يملكه العقل هو أن يحاول تبرير هذه

الرغبات البهيمية والبحث عن وسائل مقبولة لإشباعها أو التسامى بها ليزاولها بصورة أجمل أو الانتكاس بها إلى حالات هستيرية تنفس عن غليانها .

والعقل بهذا المعنى خادم للبهيمية ساقط إلى درك اللامعقول ومكرس لإشباع نزواته .

والإحساس بالذنب والتوبة والندم هى بهذا المعنى عقد نفسية وأمراض يلزم التخلص منها .. وقد استخرج فرويد وأتباعه تلك النظريات من دفتر مرضى الهستيريا والنورستانيا والملاخوليا ثم عمموها على الأصحاء الأسوياء .. وجعلوا منها قانونا لا يختلف .

وما فعله علماء النفس المتأخرون بعد فرويد كان أسوأ .. لقد أخرجوا الإنسان من بيئته الطبيعية وأدخلوه المعمل فيما يعرف الآن بعلم النفس التجريبى .

وبهذا كذبوا على الناس كذبة أخرى لأن النفس بطبيعتها ذات كلية ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المجهر لأنها بتشريحها تصبح شيئا آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها .. والنفس بطبيعتها تتفلت وتستخفى وتستعصى على التجريب .. لأن النفس كل لا يقبل التجزئة وواحد لا يقبل القسمة .

وعلم النفس الحالى هو علم نفس مرضى لأنه يركز على العيوب والأمراض والآفات والعلل ويفتش فى الانحرافات

والتشوهات ولا يقدم لنا شيئا إيجابيا عن النفس السوية الصحيحة .

وأى علم نفس هذا الذى يرى أن إشباع الشهوات هو المنبع الوحيد للسلوك وأن عقدة أوديب (عشق الولد لأمه) وعقدة الكترا (عشق البنت لأبيها) هما المرجع الرئيسى الذى يفسر جميع التصرفات .. وأن التوبة والندم والصبر على المكاره وقمع الشهوات أمراض ومظاهر للكبت .

وما قدمته هذه المدرسة كأساليب للعلاج كانت كلها أنواعا من المسكنات .. العلاج بالتنويم المغناطيسي .. العلاج بالإيحاء .. العلاج بالإفشاء .. العلاج بالتنفيس .. العلاج باللعب .. العلاج بالفن .. العلاج بالاستغراق فى عمل آلى .. كانت كلها أشبه بعلاج السرطان بالمراهم والمهدئات .. لأنها لم تفكر فى أن تغير من النفس شيئا .. وإنما قبلت وجود الدمل النفسى على حاله .. ثم قالت للمريض .. اصرخ أو غن أو ارقص لتتنفس عن آلامك .

أما الموقف الإسلامى من النفس وأمراضها فكان مختلفا بالكلية فهو يبدأ بالإنسان من موقف حرية فلا جبرية ولا حتمية فى الإسلام والنفس خلقها الله حرة تختار خيرها وشرها والله يقول للشيطان : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر]

حتى الشيطان لا يستطيع أن يقهر النفس على اختيار لا ترضاه .

والمرض والنفس ليس قدرا .. والسلوكية الشاذة ليست قضاء محتوما .. وإنما النفس قابلة للإصلاح والتبديل والتغيير .. والمنهج الإسلامى فى إصلاح النفس يفعل هذا على مراحل .. أولا يبدأ بتخلية النفس من عاداتها المذمومة (وذلك هو تفريغ الإناء مما فيه بالاعتراف بالذنوب والتسليم بالعيوب وإخراجها إلى النور) والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم على مافات ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر والمرحلة الثالثة هي مجاهدة الميول النفسية المريضة ومحاربتها بأضدادها ، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق والنفس الشهوانية على التعفف ، والنفس الأنانية على الإيثار والبذل ، والنفس المتكبرة على التواضع ، والنفس المختالة العاشقة لنفسها على الانكسار ورؤية العيوب والنقص فيها .. ولا تنجح تلك المجاهدة دون طلب المدد من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعا وسجودا فى توحيد كامل وذلك بالاسترسال مع الله والانسياب مع الفطرة وإرادة العبد ما يريده الله وكراهيته لما يكرهه .. وهنا تحدث المعجزة .. فيتبدل القلق سكينة والفزع أمنا والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل واستشعار الحضرة

الإلهية على الدوام وطول الوقت وفى كل قول وفعل .

وبالذكر تعود الصلة المقطوعة بين العبد والرب وترتبط النفس بمنبعها .. وتأخذ من أصلها ..

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. (٦٠) ﴾ [غافر]

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ..(١٥٢) ﴾ [البقرة]

فيعود النور ليغمر ظلام النفس .. ويحل العمار محل الخراب والسكينة مكان القلق .

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره عرضا ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره مؤلما أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية فى اللاشعور .. والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو بالتنويم المغناطيسى أو بملاحظة المريض أثناء تداعى خواطره .

والدين لا ينكر هذه الأسباب ولكنه ينظر نظرة أبعد وأشمل إلى ما رواء تلك الأسباب ويرى النفس فى منظور أعمق هو علاقتها بالله .. فمن كان قريبا من ربه ذاكرا له على الدوام كانت قدراته دائما مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئا ولا يغيب عن باله شىء لأنه فى دائرة النور .. أما البعد عن الله (باتباع الشهوات والإغراق فى المخالفات) فيدخل صاحبه فى دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (١٩) ﴾ [الحشر] وما

الأمراض النفسية إلا حالات الغربة والمعاناة التى تعانيها النفس لبعدها عن الله وانقطاعها عن مدده .

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس إلى الشمول والنظرة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية واللذة الحسية .. وبهذه النظرة المحدودة ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث اللاشعور وأنه حديث النفس إلى نفسها (العقل الباطن والعقل الواعى) ولا يتصور أن تلك النفس يمكن أن تكون لها حياة فى محيط آخر خفى وغبى وأنها يمكن أن تكون محلا لحديث الملائكة ووسوسة الشياطين أو مخاطبة الرب جل جلاله .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية .. ولا يتصور أن العذاب الدنيوى يمكن أن يكون ابتلاء وامتحانا من الخالق الذى خلق .. كما يفعل الحداد بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به فى الماء البارد ليزداد صلابة .. أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب عما فيها من خبث وشوائب .

ويظل علم النفس سجينا لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية بشكل ينتهى به إلى الخطأ فى كل أحكامه .. فهو مثل الأعمى الذى اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل فى نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه فى استقصاء موضوع الإخلاص والنية .. ودون أن يتخطى هدف الفعل الظاهر ويسأل نفسه ماذا فى نية صاحبه .. هل هى الشهرة عند الناس أو تحصيل المال أو الجاه أو السلطة .. أم هو يعمل خالصا لوجه الله .

والفرق كبير بين العملين .

والفصل بين العمل والنية هو فصل للشىء عن منبعه .

والأخلاق بالمنظور الدنيوى « براجماتية » وهى مجرد مصالح ومنافع .

ولا يمكن فهم الأخلاق إلا بربطها بنبعها الحقيقى وهو الدين ولم تأتنا الوصايا العشر عن طريق علماء النفس وإنما عن طريق الأنبياء .

والله بحكم أسمائه الحسنى « الرحيم والكريم والرءوف والودود والحليم ».. هو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها فهو المتجلى بالرحمة على الرحيم وبالرأفة على الرءوف بالكرم على الكريم وبالحلم على الحليم .. كما تعطى الشمس النور والدفء لكل من يتعرض لها .

ويتوسع فرويد توسعا معيبا فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية واللذة الجنسية ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو تخريف فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد

بحكم تخلف جميع أجهزته .. وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة)

كما يتصور أن الصبي يحبس البراز في شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد) .. كما يتصور كل ما هو مستدير فى الحلم رمزا لعضو المرأة (مثل الكهف والدائرة والعلبة والحلقة والخاتم) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزا لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والمئذنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة فى الحلم هى رمز للعملية الجنسية (كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة)

ثم هو يدمج جميع أنواع الحب حتى حب الوالدين (فى كلامه عن عقدة أوديب والكترا) وحب النفس (النرجسية) وحب الله (الآب السماوى الذى نكفر بعبادتنا له عن كراهيتنا لأبينا الأرضى) فيدخل كل هذه الألوان من الحب فى الدائرة الجنسية المفرغة وكأنها لعنة تمازج كل فعل وتلوث كل شعور .. فلا براءة فى أى شيء .. ولا طهارة فى أى خاطر .

ولهذا يختلف الدين عن علم النفس فى علاج الأمراض النفسية فيقف علم النفس عند حدود التعبير والتنفيس عن هذه اللعنة بالصراع أو بالرقص أو باللعب أو بالحب أو بالجنس أو بالفن أو بالعمل بينما يقول الدين بإمكانية التغيير والتبديل والخروج من

ظلمة البهيمية إلى الأنوار الروحية والإشراقات الإلهية وذلك بالمجاهدة والرياضة وقمع الرغبات بأضدادها حتى نصل إلى الوسط العدل وهو صراط الحكمة .

ولهذا ينصح فرويد بشرعة الغابة .

كل وإلا فأنت مأكول .

ونقول نحن :

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر]

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا (١٠٩) ﴾ [البقرة]

﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٢٣٧) ﴾ [البقرة]

وهو يرى أن الطيبة تخاذل وسلبية ونحن نراها قوة وإيجابية .

وهو يختار من الأعمال ما يساعد على التنفيس والتعبير ونحن نشترط الأعمال الصالحة وهو يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله ونحن لا نقول بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة .

وهو يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت كدوافع رئيسية ونحن نقول إن الإنسان فطر حرا مختارا بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾ [الكهف]

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد]

وسـبب هذا التخـبط الفرويـدى هو الإصرار منذ البـداية على الرؤية المادية وعلى فهم الإنسان فهما آليا حيوانياً حسيا .

وهو عين مـا فعله قرينه كارل مـاركس حينما تصـور التاريخ عربة تحركها المصالح المادية وحـدها وأن حركة التاريخ هى دائما ثمرة الصراع بين طمع الأغـنياء وحقد الفقـراء إلى آخر ما حكيناه فى الكلام عن الصراع الطبقى .

لقد بدأ كلا الرجلين من نقطة الكفر التام بكل شىء فيما عدا ما تباشره الحواس من متاع حاضر وما تراه العين من دنيا شاخصة .

وكان هذا الأفق المحدود والإصرار عليه هو الذ ى أدى بالاثنين إلى اعتسـاف الفروض والنتائج والتخـريجات .. وهو الذى انتهى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ .

ولا يرى فـرويد من الأحلام إلا هذا الجـانب الجنسى الحـسى الشـهـوانى .. فالأحلام كلها إشـباع لرغبات مكبـوتة وهـى تحرس النوم بهذا الإشـباع المتجدد وتريح النفس من أشـواقها المسـتعرة وفـرويد وأتبـاعـه لا يرون إلا نـوعـا واحـدا من الأحـلام .. هى ما يسميه القرآن .. أضـغاث الأحلام ولا يرون إلا جانبا واحدا من النفس .. هـى النفس الأمارة .

والقرآن يعلـمنا أن هناك نوعا آخر من الأحـلام هو الرؤى التى تأتى إلى النفس من خـارجها وتكون حـديثا من الله أو من الملائكة

المكلفين إلى تلك النفس .. ومثل ذلك الرؤى الصادقة التي تتحقق بحذافيرها .. ولا مكان لهذه الرؤى عند فرويد ، ونظريته تعجز تماما عن تفسيرها .. مع أنها خبرة عادية عاشها الكثيرون .

وينكر فرويد كما ينكر ماركس أمثال هذه الرؤى لسبب بسيط.. أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هي مسألة تهدم الفكر المادي من أساسه ، سواء الفرويدي أو الماركسي ، لأنها إثبات قاطع وصريح بسبق الفكر على المادة .

ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام

ويقول ملك مصر

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف]

فهناك إذن أضغاثٌ ورؤى .

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسات الشهوانية لأنه لا يرى إلا النفس الأمارة .

ولهذا يرى فرويد السعادة والراحة في إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة والراحة في مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عودا إلى الوطن الأول .. إلى الله .. الذي جاءت النفوس كلها منه .. كما يرى الدين أن النفس الإنسانية منازل .. أدناها النفس الأمارة وأعلى منها النفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس المطمئنة والنفس الراضية والنفس المرضية

وأعلى الكل النفس الكاملة .

وتاريخ النفس هو صعودها لهذا المعراج من المنازل كدحاً إلى الله فى أبديته وخلوده .

والحزن الحق فى الإسلام هو فراق النفس لوطنها القدسى وانغماسها فى ظلمة الدنيا .

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها .. وبينما نقول نحن إن الحب الأكبر هو حبنا لله .. وأن كل ألوان الحب الأخرى تأتى ضمنا لهذا الحب وفرعا عنه .. فنحب فى الله ونرغب فى الله .. نرى فرويد لا يبرح الدائرة الجنسية الشبقية فى نظرته للحب .. فهو دائما شبق ولو تسامى حبه إلى ألوان من الشعر والموسيقى فإنما كلها غزل بين ذكر وأنثى.

وهذا هو الفرق بين نظرة فرويد المادية المحدودة ونظرة الإسلام الرحبة الشاملة التى تضم بين دفتيها عالم الشهادة وعالم الغيب .

والحكيم هو من أدرك أن كل ما يصيبه داخل فى المشيئة الإلهية ومعلوم لها فأراح نفسه من البكاء على ما فات والقلق على ما هو آت .

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا

بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد]

فهو لا يختال ولا يتكبر ولا يأسى على ما مضى وأدبر .. وتلك هى الصفات العالية للنفس المطمئنة .. وهى نفس غير موجودة بين دفتى كتب فرويد .

وقد تبين فشل الطب النفسى الحديث من التتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسيا فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى العصابيين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا على طريقة أدلر أو لم يتلقوا علاجا على الإطلاق فمن يشفى منهم مثل مريض الإنفلونزا يشفى بالعلاج وبدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسيين مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل .

وأخير رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمنومات .. وهو هروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .. واعتراف ضمنى بأنه لا حل ولا مخرج ولا وسيلة إلى تبديل النفس وتغييرها .

والعجيب أن معظم المدارس النفسية مازالت تأخذ بهذا الرأى .. وهم بذلك يسدون على أنفسهم وعلى المرضى النفسيين أبواب النجاة .

ولكنا نقول بأن التغيير ممكن .. والله يعطينا المثال على أن التبديل ممكن .

وأين عمر بن الخطاب السكير الفاجر فى خصومته الغليظ فى جاهليته .. من عمر بن الخطاب الشريف العف الزاهد الشديد فى الحق بعد إسلامه .

هنا تغير كامل من ليل إلى نهار ومن ظلمة إلى نور .

والأمثلة أكثر من أن تعد .

وكل من جاهد فى طريق الله رأى فى نفسه أمثال هذه التغيرات تحدث أمام عينيه كالمعجزات .. وعلم النفس الإسلامى يقدم الوسيلة ويقول إن النفس هى صنعة الله .

ردوا الصنعة إلى صانعها .. فهو وحده العليم بها والقادر على إصلاحها .

مـاذا بعد المـوت ؟

فى أمريكا عشرة آلاف جمعية روحية ، وفى البرازيل ثلاثمائة مـجلة روحـيـة ، وفى العـالم آلاف الكتب والمـراجع والنشـرات والدوريات تصـدر كل يوم تتناول مـوضوعـات غامـضة مـثل .. الرؤى والأحلام والأطيـاف والهواتف والبيـوت المسكونة وظواهر انتـقـال الأفكار والجـلاء البـصـرى والإدراك خـارج الحـواس والتنبـؤات الصـادقـة وقـدرة العـقل على تحـريك المادة عن بعـد والاتصـال بالنفوس بـعد مـوتها عن طريـق الوسطاء .. وغيـرها وغيرها ..

وقضية الخلود بعد الموت قضية مثيرة .. وهى قضية كل عصر وكل زمان .. ولا يفتأ الإنسان يحاول أن يتسمع إلى ما وراء القبر ويحاول أن يفتح نافذة على الغيب أو يـلتمس ثقباً يطل من خلاله على عالم الأشبـاح .. وكلمات الدين لا تشبعه فيـحاول أن يعرف أكثر .

واليوم يفتحون الملف القديم لقضية التناسخ .. ولكن بمفهوم جديد وليس بالمفهوم الهندى القديم الذى يقول بعقاب النفوس الإنسانية الشريرة بردها فى أجسام حيوانات .

إنهم يرفضون هذا المفهوم .. ويقولون إن النفوس بعد الموت تعود إلى الميلاد فى أجساد جديدة لكن إنسانية ليعطيها الله فرصة جديدة لتعانى وتتعلم وتحقق ذواتها وتثوب وتتطهر وتكتمل خلقيا فى رحلة تطور ومشوار ربما امتد آلاف السنين قبل أن ترفع إلى عوالم عليا حسب ما تستحق من منازلها .

ويقولون إن كل نفس من نفوسنا لها تاريخ .

ومن أدلتهم على هذه التجسدات السابقة .

أن تمر بمكان لأول مرة فيخيل إليك أنك تعرفه وأنك رأيته من قبل وأن تسمع صوتا لأول مرة فيخيل إليك أنك سمعته من قبل وأن تحب شخصا بدون سبب أو تكره آخر بدون مبرر (وكأنما كان لكما لقاء وتعارف فى حياة سابقة) وأن ترى فى الأحلام مدنا وأماكن لم تزرها ولم تطأها قدماك وأن يحدث أحيانا أثناء التنويم المغناطيسى أن تسمع الوسيط يتكلم لغة أجنبية دون أن يكون قد تعلم منها حرفا ويتحدث بها بطلاقة عجيبة فإذا رده المنوم إلى تذكر ما قبل مولده حكى عن حياته فى ذلك البلد الأجنبى وكيف ولد من أب وأم يابانية فى طوكيو فى شارع كذا فى البيت رقم كذا تحت اسم كذا .. ويحدث بالتحقيق والاستقصاء

أن تتضح أن تلك البيانات صحيحة .

ثم ما يلاحظ من سلوك الأطفال وما نرى من أن سلوكهم هو أبعد ما يكون عن البراءة والطهارة التى تروى عنهم .. ففيهم الخبث والمكر والكذب والملق والأنانية وهناك الطفل الذى يعض على حلمة ثدى أمه فى قسوة وهناك الآخر الحنون الذى يربت عليها فى لطف .. وذلك منذ اليوم الأول وقبل أن يتلقى أحدهما أى مؤثر من البيئة .. فمن أين جاء الأول بكل هذه الشخصية العدوانية ومن أين جاء الثانى بكل ذلك الحنان وهما بعد فى الساعة الأولى من حياتهما .

وكم رأينا من عباقرة ولدوا من آباء خاملين ، وكم رأينا من أبطال شجعان ولدوا من آباء جبناء رعاديد .. وأين نوح من ابنه الكافر وأين إبراهيم النبى من أبيه عابد الاصنام .

إن البيئة لا تصنع شيئا من حقيقة الطفل ولا الوراثة تعطيه سوى مجرد إطار لشخصيته أما سره وخيره وشره وحقيقته فيأتى بها من الغيب من تراكم أفعاله فى حيوات سابقة .

وإنما تكون وراثة الإنسان الحقيقية من نفسه ويأتى طبعه من تراكم اختياراته السابقة فى حيواته المتكررة التى تحولت إلى عادات من كثرة تواترها .

ويتصور أصحاب هذه الفكرة أن كل النفوس متساوية وأنها جميعا تبدأ ساذجة جاهلة وكل الفارق أن بعضها يطول مشواره

ولكنها جميعا واصلة وجميعها صائرة إلى الجنة ولهذا ينكرون القيامة الكبرى والحشر الجمعى كما ينكرون فكرة الجحيم اكتفاء بأن الله يعاقب النفوس بردها إلى التجسد الدنيوى مرة بعد مرة لتعانى ثمرة خطاياها حتى تتطهر وتتوب وتصبح مستحقة للجنة الأبدية والميراث السماوى .

ولا يوجد كلام أشد خطأ من هذا الكلام .. فالواقع برمته ينفى تماما أى قول بالمساواة بين النفوس والكون كله مبنى على أساس التفاضل والتمايز بين المخلوقات ، حتى فى مملكة النبات تتفاضل الرتب ، حتى فى الصنف الواحد ، فنجد فى البرتقال أنواع السكرى والبلدى والصيفى ، وفى العنب نجد البناتى والفيومى وجاناكليس ، وفى القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة وجيزة ٧ ، وفى العناكب نجد مائة ألف صنف لا يشبه الواحد منها الآخر وفى الزهور خمسمائة ألف نوع لا تشبه زهرة الأخرى وفى الأسماك والأحياء البحرية تصانيف أكثر .

وفى النفوس البشرية أعجوبة الأعاجيب فى عالم الخلق لايتساوى اثنان ولا تتشابه بصمتان ، فالكلام عن المساواة فى المراتب والمنازل والمصائر هو محض هذيان .

وبشهادة خالق النفوس أن أكثرها هالك .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [يس]

والأمر المشاهد بالفعل أن أكثر النفوس تظل على إصرارها فلا

تتعظ ولا تعتبر وتظل تعاود شرورها مرة بعد مرة برغم وعدها لربها بالإقلاع والتوبة كل مرة .

وفى إبليس نجد نموذجا عجيبا من الإصرار على المخالفة فهذا مخلوق أمهله ربه ليعيش دون موت من مبدأ آدم إلى قيام الساعة وهى مدة بالتقدير الزمنى أكثر من عشرة ملايين سنة (عمر البشرية منذ آدم) وهو ما يزال قائما على الغواية والإفساد لم يتطور ولم يتكامل ولم يتطهر ولم يرجع عن إفساده قيد أنملة .

بل ماذا فعل هتلر وستالين ونيرون وكاليجولا .

إن هتلر وحده كان مسئولا عن قتل ٢٠ مليونا من الأنفس ، ومثله ستالين فى الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

أيرون أن من العدالة أن ترد هذه النفوس إلى تجسدات دنيوية ثانية لتقتل أربعين مليونا أخرى ؟ .

ومن يكون أولى بالرحمة فى نظر العناية الإلهية .. أن يرد الله هذه النفوس رأفة بها لتأخذ فرصة أخرى فى القتل والذبح أم أن تكون تلك الملايين من ضحاياها هى الأولى بالرحمة فلا يردها وإنما يؤجلها ليوم الفصل لأنها استوفت من الشر غايته ؟

إن القول بأن النفوس تستوى فى خيرها وشرها وأنها مستحقة جميعها للجنة وللميراث السماوى بعد طول المشوار هو قول ساذج فإن ما بين النفوس من التفاوت أكبر مما بين فلك وفلك.

ولهذا يقول ربنا عن التفاضل بين النفوس وعن تمايز درجاتها يوم القيامة :

﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ [الإسراء] أى أن ما نعرف من التمايز الطبقى فى الدنيا لا يساوى شيئاً إلى جوار التفاوت فى الدرجات فى الآخرة .

وهو تفاوت عادل بحكم تفاوت الحقائق وتفاوت المراتب .

فهناك الملك وهناك الشيطان وهناك الإنسان الذى جاوز فى خيره رتبة الملك كما جاوز فى شره رتبة الشيطان .. والثواب والعقاب بهذه الصورة التى يحكونها بالرجعة إلى الأجساد مرة بعد مرة .. لا يشكل ثوابا ولا عقابا ، لأن الإنسان يأتى كل مرة ناسيا تماما لحياته السالفة فحلقة السبب والنتيجة مبتورة .. وإنما هى مجرد تعداد للفرص وللإمكانيات لا أكثر إن صحت مزاعم العودة للتجسد وذلك حتى يحق القول فى النهاية فى ذلك المشهد الجمعى وذلك الحشر الهائل لجميع الخلائق وهو المشهد الذى تهتك فيه الأستار وتنكشف الخبايا وتفتضح الخفايا ..

وذلك هو النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون .

وذلك هو يوم الحاقة والصاخة والغاشية والقارعة والرجفة والزلزلة والساعة ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم التغابن (يوم يشعر كل إنسان أنه ظلم نفسه)

وهو اليوم الذى يقتضيه الجلال الإلهى .. وتقتضيه العظمة

والقدرة والهيمنة والعدل النهائى الفاصل والكامل ..

وشهادة الأرواح المراسلة التى حكى عنها الزميل الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه « العودة إلى التجسد » .. أمثال سلفر بيرش وهوايت راى وهوايت ايجل وغيرها لا يصح أن تقوم لها حجة أمام الروح الأمين جبريل .. وأمثال تلك الأرواح هى بشهادة الدكتور عبيد أكثرها هازل وكاذب ويروى أوهاما وأضاليل .. وهى نفوس مثل كل النفوس يجوز عليها الخطأ .

وعلم الأرواح هو علم يؤخذ منه ويرد وهو لا يخلو من التخليط ولا يصح أن ينظر إليه بأنه صدق كله .. وهو فى أحسن الأحوال مجرد مناسبة للتأمل والتفكير .

وأكبر خلط يقع فى هذا العلم هو الخلط بين كلمة نفس وكلمة روح ..

وكل ما يذكر فى هذا العلم هو عن النفس وليس عن الروح وإذا صح مبدأ الرد إلى الأحياء فإنما النفس هى التى ترد وهى التى تعانى لتتطهر وتتكامل .. أما الروح فهى مبدأ إلهى قدسى لا يجوز الكلام عنها بأنها تعانى أو تتطهر أو تتكامل ، فلا نقص بها لكى تتكامل ولا رجس فيها لكى تتطهر .

والروح هى المبدأ الإلهى الذى به تحيا النفس ويحيا الجسد فهى سر الحياة فى النفس وسر الحياة فى الجسد وهى واحدة لاتختلف فى أى إنسان عن آخر بحيث لا يجوز أن نقول روح

فلان .. وروح عـلان .. وإنما الصواب أن نقـول نفس فلان ونفس علان فهى التى تختلف من واحد لآخر ..

وإذا صحت ظواهر حضور الأرواح .. فليست الأرواح هى التى تحضر بل النفـوس ، ومن هذه النفوس من يكون من الجن أو من البشر المنتقل ، أما الأرواح فـهى متعلق الحياة في كل حي .. وهى مبدأ إلهى لا نعلم عنه شيـئا .. وهى لا تحضـر ولا تغيب .. وهى ليست فلانا أو غير فلان .

وكبير الملائكة جبـريل هو الوحيد الذى أطلق عليه اسم الروح ، وهو الوحيـد الذى يمكن النظر إليه على أنـه روح محضـة ، ولهذا لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق .. أما باقى النفوس فيجوز عليهـا الخطأ ولا يجوز تسميـتها إلا بالنفـوس .. ولهذا ينسب الله الروح إلى نفسه فـيقول : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي (٢٩) ﴾ [الحجر] وينسب النفس إلى صاحبها فيقول : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ (٣٠) ﴾ [المائدة] لأن الروح لله أما النفس فلصاحبها .

ولأن النفوس تتفاوت ولأن مراتبهـا تتفاوت ، فيلزم أن تتفاوت مصـائرها وتلزم قيامـة شاملة (غير العـودة الفردية للتجـسد) يجسـد فيها الله النـفوس ويحشرها ليـوم الجمع الذى يجمع فـيه الناس لحـساب خـتامى يطلع فـيه كل نفس على كـتاب أعـمالـها ويشـهدها على سجل أفعالها فى كـافة تجسداتها السـالفة .. هذا إن صح قولهم :

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩) ﴾ [الكهف]

ويحق القول فيه بالجنة خلودا أو بالنار أبدا بعد هذا التمحيص الأزلى للنفوس بهذا العديد اللانهائى من الفرص .

والذين يستبشعون حكم الله بالنار الأزلية ويرون فى هذا الحكم ما يناقض الرحمة الإلهية لا يعلمون أن الله سوف يختار للنار نفوسا نارية هى فى ذواتها شعلات من الحقد والغل .. والنار ستكون هى البيئة الطبيعية لتلك النفوس والمكان المناسب لحقيقتها.. فأين يمكن أن توضع مثل تلك الشعلات النارية إلا فى نار .

ثم ألا يتحدث القرآن عن نزلاء تلك النار فيقول : إنهم يتحادثون ويتخاصمون ويتلاعنون ويأكلون ويشربون .. ويقول لنا : إن فى تلك النار شجرة .. تخرج فى أصل الجحيم .. وأن فيها ماء .

فهى إذن نار مختلفه عن نارنا وعلاقة الأجسام بها علاقة مختلفة .. وهى غيب .. وحقيقتها غيب .. ولا نستطيع أن نؤسس عليها حكما .

ويقول المعترضون .. إذا كانت النفس الواحدة تعود إلى الحياة أكثر من مرة لتعيش أكثر من شخصية وأكثر من دور .. فأى من تلك الشخصيات سوف يبعث ويحاسب ، وأى منها سوف يعتبر هو النفس .

ويجيب أصحابنا بأن النفس هى الذات العميقة وراء كل تلك الشخصيات وهى خارج الزمان والمكان .. وما حياتنا فى عالم الزمان والمكان إلا شخصيات وأدوار .. وما تلك الشخصيات إلا كلقطات كاميرا من زوايا متعددة تؤلف فى مجموعها ملامح تلك الذات الواحدة العميقة .. وما تلك الأدوار وتلك الشخصيات إلا سجل أعمال ودفتر يوميات واعترافات بخط اليد لتك الذات الواحدة العميقة .. وهى التى سوف تبعث .. وهى التى سوف تحاسب .

وسيؤسس الحساب فى النهاية على « الدوسيه » الكامل وليس على صفحة واحدة أو دور واحد أو شخصية واحدة من السجل .

ويقول المعترضون .. لقد بدأ الخلق بواحد هو آدم .. فمن أين جاءت الكثرة إذا صحت مزاعم القائلين بالتناسخ والحوار بين الجانبين يطول والموضوع المحورى الذى يظل يدور حوله الجدل هو مفهوم العدل الإلهى .

ولكن ماذا يقول القرآن

إن بالقرآن آيات صريحة تقول بتعدد الحيوات

يقول المجرمون بين يد الله فى الآخرة :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر]

وهو كلام صريح يقول بالإماتة مرتين والإحياء مرتين .. وهى

الآية التى تفتح الباب بالفعل لفكرة العودة للتجسد ولفكرة تعديد الفرص أمام النفس .. ولقد فهمها المفسرون الأقدمون فهما مختلفا فقالوا : إن الميتتين هما الموت والنوم .. ولو صدق هذا التفسير لوجب أن تكون الميتتان هما حال الجميع .. ولكن الله قال بصدد الصالحين كلاما آخر .. فذكر فى كتابه أنهم : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) ﴾ [الدخان]

فتلك إذن موتة واحدة للصالحين برغم أنهم كانوا مثل الباقين ينامون .. فلا يمكن أن يكون ذلك الفهم صحيحا .

والله فى القرآن يبدأ الخلق ثم يعيده .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾ [البروج] .

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف]

ويتكرر هذا المعنى كثيرا بصياغات متعددة وبطريقة لافتة للنظر .

ويقول الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء]

وهو تحذير للأمة المسلمة كلها من خلال الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الركون إلى الكفار عقابه هو أن يذوق الفاعل ضعف الحياة وضعف الممات .

فما هو ذلك الضعف .

إنه نفس ما قاله المجرمون فى الآية الأولى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (11) ﴾ [غافر]

فتضعيف الحياة ليس إطالتها وإنما تعديدها .

ثم إن الكافرين يسألون الله فى الآخرة أن يردهم ليعملوا صالحا فيقول ربنا جل وعلا :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) ﴾ [الأنعام]

وهؤلاء هم المجرمون بالحق والحقيقة وهم أهل النار الذين هم أهلها فعلا .. وإذا كان الله قد قال بشأنهم إنه لو ردهم لعادوا إلى غيهم فلعله سوف يقيم الحجة عليهم بأن يردهم بالفعل إلى تجسدات متعددة فيعاودون إجرامهم ويحق عليهم القول .. لأن سنة الله دائما أن يبطل حجة الكافر ، بدليل الآية السابقة الواردة بصدد المجرمين الذين يقفون فى ذلة بين يدى الله قائلين : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (11) ﴾ [غافر]

ثم يقول الله عن خلقه : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) ﴾ [الإنسان]

وفى سورة محمد الآية ٣٨ يخاطب المؤمنين : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38) ﴾ [محمد]

ومعنى ذلك أن الإبدال الأول غير الإبدال الثانى ففى الإبدال

الأول مثلية .. فماذا يكون هذا الإبدال للشخوص بأمثالها .

وفي آيات الواقعة .. الآية (٦٠ - ٦١ - ٦٢)

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [الواقعة]

هل هذا الإبدال للشخوص بأمثالها .. هو العودة للتجسد الذى يقول به البعض : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء] (أي بميلاد جديد)

وفي سورة الصافات يروى القرآن عن أهل الجنة يتحدثون :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

هكذا يرى قرينه الذى كان يغويه فى سواء الجحيم ثم يدور بينه وبين هذا الشيطان الحديث ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) ﴾ [الصافات]

والمعنى واضح .. بل نحن ميتون أكثر من موتتنا الأولى ثم نحن مبعوثون إلى حساب وعذاب لمن يستحق العذاب .

والكلام يشير إلى تعدد مرات الموت للنفس الواحدة .

والموضوع كبير ولا يمكن الجزم فيه بشىء .. وهو مجال تأمل وتفكر .. والتعصب لأى موقف .. مع أو ضد .. هو اتجاه خاطىء فليس عند أى طرف من المتحاورين علم قاطع بشىء والمخاطبات التى تأتى من عالم الغيب قد تكون ضلالات تبثها نفوس شيطانية تعبث بعقول الوسطاء .

وما جاء بالقرآن عن عالم ما بعد الموت هو من متشابه القرآن الذى يحمل أكثر من وجه من وجوه الفهم والتفسير وليس من المحكم الذى لا خلاف عليه ، وهناك من آيات القرآن ما يقول بتعدد مرات الإحياء والإماتة ومنها ما يقول بالموتة الواحدة وينفى أى قول بفرصة ثانية .

وهكذا يسدل الله ستر الغيب على الموضوع كله ويحتفظ بطلاقة المشيئة فى من يعيد ومتى يعيد وهل يعيد أو لا يعيد .. ويريد لنا أن نعيش على تخوف ونحيا على حذر وذلك باب من أبواب رحمته.

ويظل الموضوع .. متاهة .. لا ينتهى فيها البحث .. كما يظل بابا للفتنة ..

ويستغل أهل الملل الباطنية من شيعة ودروز وبهائية وماسونية هذا الباب المفتوح لاستدراج ضعاف الإيمان إلى إنكار القيامة والآخرة اكتفاء بما تعانيه النفس المذنبة من عودتها للتجسد فى الدنيا مرة بعد مرة .. فلا شىء عندهم غير الدنيا والثواب فيها

والعقـاب فيـها .. وهو قول فـاسد .. فـما يجرى على النـفس بعد الموت فى البرزخ أو فى الدنيا (وهو علامـات استفهام) هو شـىء غير القيامة الكبرى وغيـر يوم الجمع الذى تحشر فيه النفوس إلى ربها لـتقف بين يديه .. وهو لب الإيمـان الذى لا يصح دين إلا به لأنه « الدينوية » ذاتهـا .. ولأنه القول الفصل فى مـنازل النفوس ودرجاتها والحكم العدل فى مراتبها .

وإذا كان هناك مبـرر لقبول هذه الشطحة التى يقول أصـحابها بإمكان العـودة للتـجـسـد فـذلك لأنى أرى الله يقطع بهـا الذرائع وينهى الحـجج لمن يتـعلل بأنه لم تكن لـديه الفرصـة فى كـذا أو الإمكانية أو لكذا .. فـيعطيه الله هذه الفرصـة .. أو تلك الإمكانية .. ثم تكون الوقفة الخاتمة التى ليس فيها كلام .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود]

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ﴾ [النبأ]

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه]

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

بطلت الحجج .. وانتهت الذرائع .. وانقطعت الأسباب .. وجفت الأقلام وطويت الصحف .

تلك هى القيامة التى لا يقوم دين إلا بها ولا يقوم فكر دينى بدونها ومن يبطلها يبطل الدين كله ..

السـؤال

يا صـــحــبى مـــا آخــر الـتـــرحـــال

وأين مـــا مـضى من ســـالف الليـــال

أين الصبا وأين رنة الضحك ذابت ....؟!

كـــــأنهـــــا رسـم عـلى الماء

أو نـقـش عـــلـى الـرمـــــــــــال

كـــــأنـهـــــا لـم تـكـن

كـــــأنـهـــــا خـــيـــــال

أيقـــتل الـناس بعـــضـــهم بعـــضـــا

عـلـى خـــــيـــــــال

عـلى مـــــتـــــاع كـلـه زوال

عـلى مـــسلسل الأيام والـليـــال

فى شـــاشـــة الوهم ومـــرآة المحـــال

إلهى يـا خـــالق الوجـــد .. مـن نكون

مــن نحــن .. من هــمـــــو.. ومن أنــا
ومــــا الــذى يجـــــرى أمــــامــنا
ومـــا الــزمـــان والــوجـــودوالفــنا
ومــــا الخلـق والأكــــوان والدُنــا
ومـــن هـــنــاك .. مـــن هـــنـــا
أصـــــابنـى البــــهـت والحنـون
مـــــــــاعــــــــــبـدت أدرى
ومـــا عـــاد يُـعـــبِّـــر المقـــال

الفهرس

بطاقة فهرسة

محمود ، مصطفى ، ١٩٢١ –
السؤال الحائر / مصطفى محمود.– ط١ .– القاهرة :
أخبار اليوم ، ٢٠٠٨
٩٦ ص ؛ ٢٠ سم
تدمك : ٠ ١٣٥٤ ٠٨ ٩٧٧
١ – القصص العربية
٨١٣

رقم الإيداع
٢٠٠٨/٥٦٣٦
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-08-1354-0



قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات





